نقض مطاعن في القرآن الكريم

يتضمن تفنيد ما ألقاه الدكتور طه حسين على طلبة كلية الآداب
في الجامعة المصرية

بقلم
محمد أحمد عرفه
وكيل كلية الشريعة الإسلامية

وقف على تصحيحه وعلق عليه بعض الحواشي
السيد محمد رشيد رضا
صاحب المنار

(الطبعة الاولى في سنة ١٣٥١)

مطبعة المنار بمصر

مقدمة التصدير

(إِنَّ الذين كَفروا بالذِّكْرِ لمَّا جاءهم وإنَّه لكتابٌ عزيزٌ * لا يأتيه الباطلُ منْ بين يَديْه ولا منْ خلفه تنْزيلٌ منْ حكيمٍ حميدٍ)

(قلْ هوَ للذين ءامنوا هدًى وشفاءٌ ؛ والذين لا يؤْمنونَ في آذانهمْ وقْرٌ وهو عليهمْ عمًى ، أُولئكَ ينادَوْنَ منْ مكانٍ بعيدٍ)

إن من أكبر مصائب الامة الاسلامية أن يبلغ بها الهوان في أكبر أمصارها وأشهرها بالعلم ، وأرجاها للحياة ، أن تعلم أفراداً من نابتتها من العلم ما ترجو أن يكونوا به جنداً لها ينصرها على من يهاجمها من الاعداء في دينها وشرفها وأدبها ، فينقلبوا أنصاراً لاعدائها ، ويهاجموها في أمنع معاقلها وحصونها ، ويحاولوا هدم ما لم تكن لولاه شيئاً مذكوراً ، وانما به كانت أمة عزيزة شديدة القوى ، مرجوة الندى ، مرهوبة الشذا ، ذات هداية عليا ، وتشريع عادل ، وحضارة زاهية ، به دانت لها الامم الكثيرة ، وبه نالت الامامة والملك ، ثم يوجد من حكامها ووزرائها من يكرمهم ،

ويأْمنهم على تربية نشئها، وتعليمه بلغتها، ماهو شر من تعليم المجاهرين بعداوتها، الذين يدعونها الى الخروج عن دينها، ليتم لهم إخضاعها لسلطان الاجنبي، بغير منازع وجداني.

كان أجرأ هؤلاء العققة (١) كاتب بدأ تعليمه في الازهر ثم في الجامعة المصرية في أول العهد بانشائها، وصحب في هذا العهد من لقح ذهنه بالالحاد، ثم أرسلته الجامعة إلى فرنسة ليدرس أدب اللغات فيها، فغذت فرنسة ذلك اللقاح بما ظهر أثره في العمل، إذ عاد اليها فجعل من أساتيذها ثم وكيلا لعميدها، وهو أستاذه الاول في أفكاره، والمركِس له في تياره.

حذق في صناعة الكتابة، فكان فيها ذا رشاقة وخلابة، ألف كتبا وأنشأ مقالات دس في بعضها سموم الالحاد، وفي بعض آخر مخدرات الاباحة والاغراء بالشهوات، فنهد للرد عليه فريق من العلماء والادباء، حتى ضج في الشكوى منه مجلس النواب في عهد رياسة سعد باشا زغلول فأوشك أن ينتقم منه، ورفع أمره الى القضاء فكاد يقضي عليه، بيد أن أنصاره الاقوياء من كبار الوزراء آزروه وظاهروه

(١) جمع عاق بالتشديد اسم فاعل من العقوق وقد اخترته على العاقين على ثقل لفظه لمناسبة معناه، وللاشارة إلى عدم استعمال عقولهم في عقوقهم، على ان الادغام يخفف الثقل

حتى أنقذوه. ثم قدر الله تعالى أن تخرجه وزارة المعارف من الجامعة في العام الماضي في إثر حملة شديدة جديدة في مجلس النواب ، أظهرت للامة من جنايته على طلبة كلية الآداب فيها ما يرى القراء نقضه في هذا الكتاب .

سُرَّ جميع أهل الغيرة على الدين باخراجه من الجامعة ، وإنه ليسرهم أن يسمعوا اليوم من الازهر الشريف صوتا جهوريا في نقض ما أذاعه مجلس النواب من طعن هذا الكاتب على القرآن العظيم ، صوت عالم أزهري ، وأديب عصري ، و كاتب مجيد غير سياسي ، ينقض هذه المطاعن الاخيرة ، وأن يصدر نقضه لها عن دار المنار ، التي أسست من أول يوم لخدمة الاسلام ، فكلانا بريء من سياسة الاحزاب ، فلا نحن من أحزاب الحكومة ولا من أحزاب المعارضين لها ، ولا من خصومهم ولا من خصومها ، وانما ننصر ديننا ، ابتغاء مرضاة ربنا ، فيما يجب علينا لأمتنا ودولتنا .

ونتمنى لو يصرح هذا الطاعن بأن جميع ماصدر عنه من الطعن على القرآن قولا في الدرس، وكتابة في الطرس، كان باطلا، وانه رجع عنه وتاب منه. وانه يؤمن بأن القرآن كلام الله كله حق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) فان مانقل عنه من انه قال انه يؤمن بالله ورسله

لايكفي في صحة توبته مما ذكر ، على ان هذه المطاعن التي ألقاها في دروسه كانت بعد تلك الكلمة التي كان سببها تحقيق النيابة العامة معه في مطاعن كتابه (في الشعر الجاهلي)

اختار الاستاذ صاحب هذا النقض للمطاعن الاخيرة أن يطبعه في مطبعة دار المنار لانها أحق به ، وأجدر بنشره ، بل رغب إلي أن أشركه في أجره ، بما يعن لي من تعليق عليه ، وبمقدمة تصدير له ، فأقرن كلمه الطيب بكلمي ، وأعزز قلمه البليغ بقلمي ، وإنها لرُغبى محبوبة للمؤمن بالطبع ، ومظاهرة على الحق واجبة في الشرع ، وتعاون على البر والتقوى ، أمرنا الكتاب العزيز بها ، وهو قد وفى النقض للمطاعن الجديدة حقه ، وقفى عليه بما كان من رد له على ما قبلها من خطيئاته ، فأدى الواجب في جزئيات المطاعن الخاصة وزاد عليه ، وليس علي إلا أن أقول كلمة وجيزة في النازلة من الوجهة العامة :

النابتة العصرية من الكتاب

نبغ في الربع الثاني من هذا القرن الهجري نابتة من كتاب الادب والسياسة والتاريخ ، اقتفوا إثر الافرنج في الاساليب ، وما يسمونه النقد التحليلي في الكتابة ، ومزج الكلام بالنظريات الحديثة والمسائل العلمية ، فكان لما يكتبون رواج ووقع حسن عند جميع

المتعلمين على المناهج الحديثة ، وأصاب بعضهم بـ، شهرة بما تنشره لهم الجرائد التي يؤيدون سياستها وما تقرظه من مصنفاتهم ، ناعتة إياهم بأجمل النعوت، والالقاب المحببة إلى النفوس ، وناهيك بدعوى تجديد حضارة الامة ، وقيادتهـا إلى حيث تساوي أمم الافرنج في عظمتها، وتمتعها بزينة الدنيا وطيباتها .

وإن لبعض هؤلاء الكتاب (مصنفات حرة مستقلة ، وهم الذين يخدمون العلم والتاريخ والادب بباعث حب التحقيق ، وإن لبعض آخر) أهواء سياسية وإلحادية ، لمنافع لهم شخصية ، على ما بيناه في المنار بالتفصيل وأشرنا اليه آنفا بالاجمال، وهو موضوع كلامنا هذا، وشره وأضره الطعن على القرآن الحكيم

إذا كان يوجد في الاوربيين من يتمحل الطعن على الاسلام ، ولا يتنزه عن التسامي إلى انتقاد القرآن ، فلهم على ذلك باعثان : باعث ديني وباعث سياسي .

ذلك بأنهم رأوا أن الاسلام قد غلب النصرانية على أمرها في الشرق، وكاد يغلبها في الغرب أيضاً ، بعد اعتزاز دولها ، واستبحار ثروة كنائسها ، وإحكام نُظمها ، فلم يجدوا وسيلة لصد تياره عن بلادهم ، وسلبه لملكهم ، وتعريبه لشعوبهم ، إلا محاربته بالافتراء

عليه والطعن فيه ، وبقتال أهله بالسلاح ، ثم بالسياسة ، فأحكموا نظام الحربين بعد التمهيد لهما بتربية الشعوب النصرانية على بغض المسلمين ، وتلقينهم في البيوت والمدارس أن الاسلام هو العدو الاكبر للمسيحية ، وما هو إلا أخو المسيحية وصديقها ، والمدافع عن حقها ، والمتمم لاصلاحها ، والمبرىء لنبيها (ع . م) من طعن المفترين وشطط الغالين .

ويوجد منهم قوم آخرون لا يدينون بدين وقد رأوا من معجزات القرآن ومن أنزل عليه القرآن في العلم وهداية البشر واصلاح شؤونهم ما يلجئهم إلى الايمان والاذعان، إذ لم يجدوا لهذه المعجزات تأويلا ينظمونها به في سمط السنن الكونية ، فتكلفوا التأويل لها ، لابطال كونها من خوارق العادات والآيات الالهية ، فهذه أسباب طعن الافرنج ومريديهم وتلاميذهم من النصارى والملاحدة .

وأما المسلم فلا يعقل أن يبعثه شيء على الطعن في كتاب الله وفي هدي رسوله، صلوات الله وسلامه عليه وآله ، وهو برهان الكفر والردة ، وكبرى الجنايات القاتلة لهذه الامة ، فان خفي عليه برهان شيء من عقائده، أوصحة شيء من آياته، وجب عليه أحد أمرين : إما الجد في طلب العلم بالبحث عما جهل والسؤال عنه ، وإما تفويض الامر في ذلك إلى الله تعالى .

بيد أن في المسلمين الجغرافيين زنادقة منافقين، وأن منهم ملاحدة شاكين، وأن من زنادقتهم غاوين مشككين، يستخدمهم شرار أعداء الاسلام الدينيين والسياسيين، وأن منهم من يزدلف اليهم بالتشبه بهم، وبدعوى «التنور» وحرية الفكر والفلسفة، وإن من النابتة والعامة من ينخدع بشبهات هؤلاء وأولئك، وتغره دعايتهم بما يزينها من خلابة القول، ووهم التجديد العصري، والانسلاخ من تقاليد القديم الذي يصفونه بالخلق البالي، وإن كان كالفلك لاتخلق جدته، وكالشمس والقمر لاتبلى محاسنه، ولا ينطفيء نوره، وهو القرآن الحكيم

وان لهذا التجديد دعاة من ملاحدتنا يوهمون الدهماء في بلاد الاسلام العربية والاعجمية أن الافرنج ما صاروا أقوى منا وأرقى ثروة وحضارة، وتمتعا باللذات والشهوات، إلا بالانسلاخ من الدين، فأول ما يجب علينا أن نفعله اذا أردنا أن نكون مثلهم أن نتجرد أولا من ديننا، فنكون إباحيين عباداً لشهواتنا، ثم نطلب علومهم وفنونهم فنكون مثلهم، وهذا غش وخداع بالكذب والبهتان، فهم أشد من شعوب الشرق كلها إحكاما لرابطتهم الدينية، وعناية بتعليم الدين ونشره، وبذل الملايين في سبيله (١)

---

١) ان دول اوربة لتجدد العناية بالدين تعليما وتربية وقد قرأت اليوم برقية في الصحف بأن حكومة النمسة أمرت بجعل اقامة شعائر الدين في مدارسها اجباريا

ولكن لهؤلاء الدعاة للالحاد والاباحة شبهات من فلسفة الافرنج وأصول النقد عندهم يروجون بخلابتها الطعن على القرآن بما يفترون عليه ، فنحن نشير اليها أولا ونقفي عليها ، ببطلان بناء نقدهم له على قواعدها ، فاذا هي وأهلها كمن قال الله تعالى فيهم (قَدْ مَكَرَ الذينَ مِن قَبْلِهِم فأتى اللهُ بُنيانَهُمْ مِنَ القَواعِدِ فخرَّ عليهِمُ السَّقفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وأتاهُمُ العذابُ من حيثُ لا يَشعُرُونَ)

قواعد النقد العصري

من أصول النقد العلمي الفلسفي للكلام الذي يسمونه النقد التحليلي أن يعرف أولا تاريخ صاحبه في مزاجه وتربيته الدينية والادبية ، وقومه ، وعشرائه، ووطنه وحكومته، وأخلاقه ومعيشته، وأهله وولده ، وعوارض حياته ، وأطوارها الاجتماعية والسياسية والشهوانية وغيرها ، فمن المعلوم بالطبع والعقل أن كل ما يعرض لادراك الانسان ووجدانه يكون له أثر في كلام صاحبه .

فلو كان الانسان مفطوراً على الصدق وألا يقول إلا مايعتقد ، وألا يكتم شيئا مما يعتقد ، وعلى التوفيق بين اعتقاده وما يعارضه من شعوره ووجدانه ، من حب وبغض ، وخوف وطمع ، لكان

طريق النقد التحليلي للكلام معبّداً مستقيماً قلما يضل سالكه أو يعثر

ولكن الانسان خلق قادراً على الصدق والكذب ، وعرف من سيرة أفراده أنهم يتبعون أهواءهم ومنافعهم في كلامهم فيرجحون بها الكذب على الصدق ، أو إخفاء الحق على إظهاره ، إما لجلب منفعة أو لدفع مضرة ، إلا من كان له عقيدة دينية أو حكمة عالية تعصمه من الكذب الصريح ولو بالتأول ، وقليل ما هم . ولذلك قال بعض الاذكياء : إنما وظيفة اللسان في الانسان إخفاء الحقيقة عن الناس ، ولا ريب في أن الشعراء وكتاب السياسة المكتسبين بشعرهم هم أبرع الناس في الكذب والافك ، وإبراز الباطل في صدق الحق ، والرذيلة في ثوب الفضيلة ، والعكس . فهذه مدحضة من مداحض النقد التحليلي في الناقدين والمنتقدين ، تتيح لصاحب البصيرة أن يظهر خطأ هؤلاء الكتاب عندنا في كثير مما قالوه ويقولونه في تراجم شعراء العربية ونقد رجال السياسة

ومن هذه المداحض بعض ما يضعونه من الاصول والقواعد الواهية لطبائع الامم وأحوالها الاجتماعية ويرجعون اليها في نقدهم ، كالذي كانت الشعوبية تقوله في ذم العرب ، ومنه بعض ما قاله الحكيم ابن خلدون بسريان دعايتهم في رأيه على استقلاله فيه ، وبنى عليه زعمه

أن أكثر حملة العلم في الاسلام من العجم ، دع ما تخرَّص به بعض علماء الافرنج من المستشرقين وغيرهم في هذا الباب ، وهوما يعتمد عليه مقلدتهم منافي نقدهم التحليلي، يعرفون بداوة العرب ويجهلون حضارتها القديمة في جزيرتها ولاسيما السعيدة منها ، وفعل جواليها في الحضارات الكلدانية في العراق والفينيقيه في سورية والمصرية في مصر

ومن فروع الاغلاط الراجعة إلى هذه الاصول التي أخذها كثيرون بالتسليم فجعلوها من القضايا البرهانية ، قول بعض السابقين إن سبب وضع علماء الاعاجم لأكثر معاجم اللغة العربية ولكتب فلسفتها من النحو والبلاغة هو شعورهم بالحاجة اليها لفهم هذه اللغة التي كان يفهمها أهلها بالسليقة

وهذا قول باطل فمن ثم كان تعليله باطلا ، فان الواضع لأول معجم للغة هو الخليل بن احمد وهو عربي ، وأكثر واضعي سائر المعاجم من العرب كالفيروزبادي وهو قرشي صديقي ، وابن سيده وهو عربي أندلسي ، وابن منظور وهو عربي أنصاري خزرجي ، ولا تتسع هذه المقدمة للتمثيل لسائر العلوم اللغوية والشرعية

ومن فروعها ماجرى عليه الدكتور طه حسين في محاضراته الاخيرة في شعر أبي تمام والبحتري وابن الرومي ، فقد تمحل فيها

حاوله تبعاً لغيره من إثبات نسب أعجمي لبعض هؤلاء الشعراء وغيرهم ، وتمييز شاعريتهم عن غيرها من شاعرية أقرانهم ، بتأثير الوراثة الاعجمية في عقولهم ومخيلاتهم ، في إثبات الانساب الاعجمية لبعض هؤلاء الشعراء نظر تاريخي ظاهر واضعف دلائله دلالة الاسماء والالقاب ، والنسبة الى البلاد ، ولكن النظر في إثبات الوراثة الاعجمية في شعرهم أقوى وأظهر ، فقد أتى على جيل الروم قرون كثيرة لم ينبغ فيها فيلسوف ولا شاعر يقرن بشعراء العرب في جاهليتهم فضلا عن شعراء حضارتهم ، على ان ملكة الشعر لم تكن شائعة منتشرة في الروم كالعرب فيرثها اكثر من كان من سلائلهم وان بعدت من عهد علمهم وحضارتهم

إذا تمهد هذا أقول :

نقد كتاب الافرنج للقرآن والنبي (ص) ومقلدهم المسلم

إن كتاب الافرنج من دعاة النصرانية والملاحدة قد وضعوا القرآن المجيد الحكيم والنبي الامي الصادق الامين على مشرحة النقد التحليلي ، وأعملوا فيهما مداهم ومباضعهم ، وآلات التحليل عندهم ، اتباعا لقواعدهم وأصولهم التي أشرنا اليها ، فكان عاقبة ذلك أن آمن من كان سليم الفطرة منهم غير جامد على الافكار المادية بنبوة

محمد ورسالته، وكون القرآن كلام الله تعالى ووحيه اليه ﷺ وتمحل بعضهم من التعليل والتأويل للمعجزات والآيات العلمية، ما رآه أقرب إلى الجمع بين المعتاد والمعهود في استعداد البشر العقلي والروحي وسنن الاجتماع، وما ثبت في تاريخ محمد ﷺ مما هو من خوارق العادات، مع اجتناب المبالغة في ذم ولا مدح كموسيو مونتيه، ومنهم من عرضه في قالب المدح بمثل ما شرحه كارليل في كتابه (الابطال) ومسيو درمنغام في كتابه (حياة محمد) عليه الصلاة والسلام

وأصرَّ الفريق الثالث على افتراء الكذب والبهتان، وأعني بهذا الفريق دعاة الكنيسة، وأعوانهم من رجال السياسة

فأما هؤلاء الطاعنون المفترون فالباعث لهم على عملهم خدمة ملتهم ودولهم، وجهاد أقوى عدو لتعاليم كنائسهم وعظمتها على قاعدتهم المشهورة عنهم بلفظ «الغاية تبرر الواسطة» يعنون ان الجريمة التي تكون وسيلة الى مقصد حسن كالكذب تكون بهذه النية من أعمال البر الشريفة، وهم مأجورون عليه من جمعيات كنائسهم في الدنيا، والمؤمن منهم بكنيسته وقاعدتها المذكورة يرجو على عمله ثواب الآخرة ودخول الملكوت

وأما أولئك الناقدون من علمائهم المستقلي العقل مادحهم

وقادحهم فانهم رأوا أنفسهم تجاه أعظم حادث في تاريخ البشر :
رجل أمي ظهر في قوم أميين مشركين من أبعد الشعوب عن الحضارة ، وهداية الديانة ، والتشريع والفتح وسياسة الشعوب ، جاءهم بكتاب فاق جميع كتب الانبياء والحكماء في عبارته وهدايته ، فجمع به وعليه كلمتهم المتفرقة ، وألف بين قلوبهم على ما كان من إحنة وضغن ، وهذب طباعهم على كبر السن ، ففتحوا العالم وصاروا أئمة أمم الحضارة وسادتها وملوكها ، كتاب معجز بأسلوبه ونظمه وعلمه ، ونبي ذو معجزات في نفسه وأخلاقه وأعماله وأمته ، لا جرم ان هذا الحادث التاريخي الاعظم يحتاج إلى فهم ونقد وتعظيم وإكبار . مع تكلف إدماجه في المعتاد من كبار العقول وأعلياء الهمم من الناس

وأما مدرس الادب المسلم في الجامعة المصرية التي أسستها الامة المصرية المسلمة بأموال أغنيائها وأوقافها ، وكفلتها الدولة المصرية الاسلامية ، فما الباعث له على الطعن في نبيه الكريم ، وكتاب ربه العلي العظيم ، وجعل الطعن عليهما درسا في الادب يلقح به أذهان طلبة كلية الآداب مصرحا فيه « بأن الباحث الناقد والمفكر الجريء لا يفرق بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر »

والمفروض أنه مؤمن بان القرآن كلام الله ووحيه ، فلا يدخل في عموم تلك القواعد الموضوعة لنقد كلام البشر ؟

هل يستطيع مسلم جريء أو متهور ألا يفرق بين كتاب الله وبين أي كتاب أدبي آخر ،وان كان ككتاب ألف ليلة وليلة ، أو خريدة العجائب مثلا ؟

أم هل يستطيع كافر بالله وكتابه ورسوله وقد أوتي حظا من بلاغة اللغة او نصيبا من أدب النفس وعلم الاخلاق ، او خلاقا من علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، ألا يفرق بين القرآن العظيم الحكيم وبين أي كتاب آخر ؟

أم هل يصدق من يدعي عدم التفرقة في قوله ،وقد اقتصر في نقده على الطعن ، وأسرف فيه حتى أربى على أولئك الاعداء الطعانين بما لا يعقل انه يعتقده ، وهو مايرى القاريء بيانه في هذا النقض ؟ ألا إن من وراء المعقول ان يكون هذا من النقد النزيه ، الذي يعبرون عنه بالبريء ، فما سببه اذا وما الداعي اليه ؟

من هذه المطاعن ما سببه الجهل بالمكي والمدني من السور ، ومنها ما منشؤه الجهل بما يدرك منها بالسمع والبصر ، كالذي زعمه في قصر الآيات في القسم المكي ، وطولها في القسم المدني ، وهو

مما ذكره علماؤنا ولم يبينوا سببه ، ونحن نبينه هنا بالايجاز فنقول :

إن طول الآيات وقصرها منوط بموضوعها ، ولا دخل فيه لمكان نزولها ، فالآيات أو السور التي يراد بها الوعظ والزجر يحسن فيها أن تكون أقصر من آيات الاحكام ، وهي تكثر في القسم المكي لأنه هو المناسب لحال المخاطبين ، من المشركين المعاندين ، كما تكثر الاحكام التفصيلية في السور المدنية لان الخطاب بها للمؤمنين المكلفين ، على أن الآيات الطويلة التي قال « إن الآية الواحدة منها تزيد على عدة سور بتمامها من القسم المكي » قليلة جداً ، بل لا تظهر تمام الظهور إلا في آية الاحكام المالية من الدين والرهن وكتابتها والاستشهاد عليها من سورة البقرة ، فهي أطول آية في القرآن تبلغ في المصاحف المطبوعة اثني عشر سطراً ، وهي تزيد على عدة سور من صغار المفصل التي تتلى في الصلوات القصيرة مكيها ومدنيها ، فسورة النصر منها مدنية وهي سطران فقط ، وسورة الزلزلة مدنية وهي أربعة أسطر ومثلها سورة العاديات والمعوذتين وكذا العصر في قول وهي سطر واحد

وآيات الاحكام التي قلما تبلغ نصف تلك الآية الطولى قليلة

جداً كآيتي المواريث في سورة النساء ودونها الآية التي في آخرها ، وآية الوضوء وآية الوصية في السفر من سورة المائدة ، وما عدا ذلك من آيات السور السبع الطول والمئين معتدل بين الطول والقصر ، ومنها المكي والمدني ، وانما تكثر الآيات القصيرة في قسم المفصّل من القرآن لحكمتين (أولاهما) أن أكثره وعظ وزجر وعبر ، وسوره أكثرها مكي وهو المناسب لمقتضى الحال في مكة وأهلها لما كان عليه أكابر أهلها في جحودهم وعنادهم وطول باعهم في البلاغة ، لا لانحطاط بيئتهم وسذاجتهم كما زعم ، فانهم كانوا أرقى العرب ذكاء ونباهة وبلاغة

(وثانيتهما) أنه أكثر مايتلى في الصلوات فرضها ونفلها ، طويلها وقصيرها ، فالمناسب أن تكون آياته قصيرة وسوره قصيرة أو متوسطة ليكون كل ما يقرأ منها مستقلا بالفائدة المتدبرة ، والطاعن يجهل كل هذا على ظهوره لان درس التفسير وحكمة القرآن لم يكن مما يعنى به

ومن هذه المطاعن ما سببه الجهل بفنون البلاغة أو الغفلة عنها أو تقليد الافرنج وهو ما عبر عنه بتقطع الفكرة واقتضاب المعاني ، وقد سبقه اليه مستر سايل وغيره ، ولا يتسع هذا المقام لبيانه

تكلف النقاد من الافرنج قبله أن يجدوا فرقا بين السور المكية

والمدنية وبين أخلاق النبي وأحواله في مكة إذ كان فقيراً ضعيفاً ، ثم في المدينة بعد أن صار غنيا قويا، وما كان شرعه في البلدين إلا شرعاً في إبطال الباطل وإحقاق الحق ، ، وتقرير قواعد الاصلاح وإقامة ميزان العدل ، وما كان في الحالين إلا مثلا في الخلق والعمل ، «والشمس رأد الضحى كالشمس في الطَّفَل» وما كان مكي القرآن ومدنيه إلا سواء في البلاغة المثلى على ما قيل في تعريفها من مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وعلى ما نقول من أنها عبارة عن بلوغ المتكلم به ما يريد من إصابة موقع الاقناع من العقل ، والوجدان من القلب.

(ألر * كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * اللهُ نَزَّلَ أَحسنَ الحديثِ كتاباً متشابها)

فكان مقتضى الحال في مكة وأهلها مشركون منكرون للبعث مستكبرون بما لهم من الثروة والرياسة في العرب ، في الذروة من بلاغة اللسان ، ولوذعية الاذهان ، وجرأة الجنان — أن يخاطبوا بالنذر القارعة ، والحجج الصادعة ، بأبلغ العبارات ، وأفصح البينات ، في الدعوة إلى التوحيد ، وأصول الدين ، وقواعد التشريع وعقائل الفضائل ، وهو ما ألممت ببيانه في مقدمة الطبعة الثانية للمجلد الاول من المنار ، التي كانت في سنة ١٣٢٧ هـ إذ قلت :

« قد اقتبسنا أسلوب الاجمال قبل التفصيل وقرع الاذهان بالخطابيات الصادعة من القرآن الحكيم ، فان أكثر السور المكية ولاسيما المنزلة في أوائل البعثة قوارع تصخ الجنان، وتصدع الوجدان، وتفزع القلوب إلى استشعار الخوف ، وتدع العقول إلى إطالة الفكر، في الخطبين الغائب والعتيد، والخطرين القريب والبعيد، وهما عذاب الدنيا بالابادة والاستئصال ، أو الفتح الذاهب بالاستقلال، وعذاب الآخرة وهو أشد وأقوى ، وأنكى وأخزى، بكل من هذا وذاك، أنذرت السور المكية أولئك المخاطبين إذا أصروا على شركهم، ولم يرجعوا بدعوة الاسلام عن ضلالهم وإفكهم ، ويأخذوا بتلك الاصول المجملة ، التي هي الحنيفية السمحة السهلة ، وليست بالشيء الذي ينكره العقل ، أو يستثقله الطبع ، وإنما ذلك تقليد الآباء والاجداد، يصرف الناس عن سبيل الهدى والرشاد

« راجع تلك السور العزيزة ولاسيما قصار المفصل منها كالحاقة ما الحاقة ، والقارعة ما القارعة ، وإذا وقعت الواقعة ، وإذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت ، والذاريات ذرواً ، والمرسلات عرفا ، والنازعات غرقا .

تلك السور التي كانت بنذرها ، وفهم القوم لبلاغتها وعبرها ،

تفزعهم من سماع القرآن ، حتى يفروا من الداعي ﷺ من مكان إلى مكان (٧٤ : ٥٠ كأنهم حُمُرٌ مستنفرة * فرت من قسورة * ١١:٥ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) ثم ارجع إلى السور المكية الطوال ، فلا تجدها تخرج في الاوامر والنواهي عن حد الاجمال ، كقوله عز وجل (١٧ : ٢٣ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) - إلى الآية ٣٧ منها ، وقوله بعد إباحة الزينة وإنكار تحريمها وتحريم الطيبات من الرزق (٧ : ٣٢ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)

﴿ قصص القرآن ومزاياها ، والتشريعان الاسلامي والاسرائيلي ﴾

هذا ومما امتازت به السور المكية قصص الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وما في معانيها من أصول دين الله العام ، ومن بيان سننه تعالى في الأقوام ، ومن العبر والمواعظ في التهذيب ، ونزاهتها من كل ما يخل بالاداب ، ومن سوء القدوة في الاخلاق والاعمال ، وهي تفضل بذلك كله قصص التوراة كما فصلناه في تفسير المنار ، وكذلك

تفضلها وتفضل سائر كلام البشر بما في نظم عباراتها ، واختلاف أساليبها ، من روعة البلاغة ودلائل الاعجاز الخاصة بها ، وناهيك بايرادها في بعض السور بمنتهى الايجـاز والاقتصار على موضع العبرة ، وفي بعضها بالاسهاب والبسط المشتمل على كثير من أصول الهداية وسنن الاجتماع وأمهات الفضائل — وفي بعض آخر بما هو وسط بينهما ، مع اختلاف النظم والاسلوب والفواصل في كل منها بمـا يتجلى به الاعجاز أظهر التجلي من ناحية البيان ، فوق الاعجاز من ناحية الاخبار بالغيب، وتصحيح أغلاط التاريخ المأثور عند أهل الـكتاب ، وبيان خلاصة دين الله (الاسلام) في العقائد والهداية التي جاء بها الانبياء عليهم السلام، ونزاهتهم عما وصمتهم به كتب اليهود من النقائص والآثام .

ولو أن هذه القصص جاءت في السور المدنيـة لقال المغرور بفلسفة نقده التحليلي : إن محمداً أخذ أكثرها من التوراة لان أهل مكة كانوا يجهلونها، بل كانوا يجهلون هذا النوع القصصي في كلامهم تاريخيه ووضعيه ، وقد عدوا هذا من عيوب الشعر العربي ونقصه عن شعر الأعاجم — ولكانت هذه الشبهة على قوله هذا أدنى أن تشتبه على طلبـة الجامعة المصرية والعوام ، من شبهته على وجود

تشريع الاحكام الشخصية المالية والزوجية في القسم المدني، فان الفرق بين التشريعين الاسلامي والاسرائيلي في هذين النوعين وفي غيرهما عظيم جداً، كما أن سبب تفصيله في المدينة دون مكة واضح جداً، وهو أن التشريع العملي مرتبط بسلطان الحكم التنفيذي فلا تشريع لمن لا يملك حكم التنفيذ، فالاسلامي أرقى وأعلى من الاسرائيلي من كل وجه، وناهيك بكونه تشريعاً عاما لجميع البشر في جميع الأزمنة والامكنة، ومن أسسه المساواة في الحق والعدل بين جميع الشعوب والقبائل، وجميع الافراد فيهما، لا يميز فيه بين ملك وسوقة، ولا بين شريف ووضيع، أو غني وفقير، أو قوي وضعيف، والتشريع الاسرائيلي خاص بشعب خاص مبني على تفضيله على جميع الشعوب بنسبه (لحكمة موقوتة بيناها في مواضع من تفسير المنار) فلا يستطيع هذا الشعب نفسه تنفيذه في هذا العصر إن عاد له الملك الذي يسعى له، بل هم قد تركوا معظم أحكامه من قبل أن يفقدوا الملك، والقرآن يعيب عليهم تحريف كتابهم وجهلهم به، وعدم إقامته، وإيمانهم ببعضه وكفرهم ببعض، والنبي صلى الله عليه وسلم نهى أصحابه عن النظر في كتبهم، وأخبرهم أن نبيهم موسى (ع.م) لو كان حيا لما وسعه إلا اتباعه، لأنه خاتم النبيين الذي جاء بالدين الكامل والشرع العام

لجميع البشر ، كما بشر الله به موسى في التوراة ، وكما بشر به عيسى (ع.م) المصلح في شريعته . زد على هذا نعيه عليهم فساد أخلاقهم ولاسيما الحسد ، والبخل ، وأكل السحت ، واستحلال أكل أموال الناس بالباطل ، ووصفهم بأنهم لا يفقهون ولا يعقلون

ألا يستحيي من يعلم هذا من مؤمن بالقرآن ونبي القرآن أو كافر حر الفكر أن يفضل السور المدنية على المكية بتأثير مجاورة اليهود — وهذا حكمه عليهم — ويدعي استمداد المهاجرين من ثقافتهم وتشريعهم ، وهم الذين أصلحوا جميع شعوب البشر بهداية القرآن ، والتأسي بأكمل الخلق على الاطلاق ؟؟ وقد أجمع مؤرخو الافرنج وغيرهم على أن أظهر أسباب نجاح الاسلام في انتشاره السريع وفتوحه الكثيرة الظافرة ما كان عليه أهل الملل كلها من فسوق وفساد ، والدول كلها من ظلم واستبداد .

هذا ما يتسع له المجال من الفرق بين السور المكية والمدنية بالاجمال ، وقد التزمنا في تفسير المنار أن نكتب في آخر تفسير كل سورة خلاصة كلية لما في السورة من الأصول والقواعد العامة التي تشتمل عليها ، ومنها الفرق بين المكي والمدني بالتفصيل

فمن راجع خلاصة سورة الأعراف المكية في الجزء التاسع من

تفسير المنار يرى في باب توحيد الله إيمانا وعبادة وتشريعا ١٢ أصلا وفي باب الوحي والرسالة ٢٤ أصلا ، وفي باب عالم الآخرة والبعث والجزاء ١٢ أصلا ، وفي باب أصول التشريع ٩ أصول ، وفي باب آيات الله وسننه في الخلق والتكوين ١٤ أصلا ، وفي باب سنن الله تعالى في الاجتماع والعمران ٧ أصول

ثم إذا راجع خلاصة سورة الأنفال المدنيـة في الجزء العاشر يجد في أولها مقدمة في الفرق بين السور المكية والمدنية هذا نصها :

« ينبغي أن يتذكر القاريء أن جل السور المكية في أصول الايمان الاعتقادية من الألهيات والوحي والرسالة والبعث والجزاء وغيرهما من عالم الغيب ، وقصص الرسل مع أقوامهم . ويلي ذلك فيها أصول التشريع الاجمالية العامة ، والآداب والفضائل الثابتة ، كما بيناه في خلاصة كل من سورتي الأنعام والأعراف ، ويتخلل هـذا وذاك محاجة المشركين ودعوتهم إلى الايمـان بتلك الأصول ودحض شبهاتهم ، وإبطال ضلالاتهم ، وتشويه خرافاتهم

وأما السور المدنية فتكثر فيها قواعد الشرع التفصيلية ، وأحكام الفروع العملية ، بدلا من أصول العقائد الايمانية ، وقواعد التشريع العامة المجملة ، كما تكثر في بعضها محاجة أهل الكتاب ، وبيان ماضلوا

فيه عن هداية كتبهم ورسلهم ، ودعوتهم إلى الايمان بخاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وفي بعضها بيان ضلالة المنافقين ومفاسدهم كما يرى القاريء للسور المدنية الطول الأربع (جمع الطولى) المتقدمة ، وكل من هذا وذاك يقابل مافي السور المكية من بيان بطلان الشرك وغواية أهله

في سورة البقرة تكثر محاجة اليهود وفيها تذكير كثير بقصة موسى معهم، وفي سورة آل عمران تكثر محاجة النصارى [١] وفي سورة المائدة تكثر محاجة الفريقين، وفي سورة النساء تكثر الاحكام المتعلقة بالمنافقين، ويليها في فضائح المنافقين سورة التوبة الآتية . وتكثر في هذه السور الثلاث أحكام القتال، كما تكثر في هذه السورة (أي سورة الانفال) اه

ثم إذا راجع خلاصة سورة براءة (التوبة) المدنية يجد في أولها ما نصه : « هذه السورة آخر السور المدنية الطول نزولا فيقل فيها ذكر أصول الدين وما يناسبها من الحجج العقلية والسنن الكونية ، وكذا أنواع العبادات البدنية اه

ثم إذا هو قرأ الأبواب والفصول التي لخصنا فيها مافي السورتين من الاصول والقواعد يجد أكثرها في قواعد التشريع الخاص بالقتال

---

(١) كان سبب هذا مجيء وفد نصارى نجران ومحاجة النبي (ص) لهم

والصلح والعهود ، وأحكام المشركين والمنافقين وأهل الكتاب في ذلك ، وكذا القواعد والاصول المالية ، وكل ذي إدراك يفهم أن هذا كله لايعقل أن يكون إلا في القسم المدني دون المكي

الحروف المفردة في أوائل بعض السور

إن هذه المسألة ما كان ينبغي لمسلم أن يقلد دعاة النصرانية في تشكيك طلاب العلم في القرآن بها وجعلها من مباحث النقد التحليلي في الادب ، وقد فند الاستاذ الناقض لمطاعنه رأيه فيه ، وذكرنا فيما علقناعليه في حاشيته ما سبقه اليه بعض المستشرقين منه ، ونذكر هنا المختار عندنا في هذه المسألة ، وهو ما كتبناه في تفسير (ألمص) من أول سورة الاعراف في الجزء الثامن من تفسير المنار وهو :

﴿ المص ﴾ هذه حروف مركبة في الرسم بشكل كلمة ذات أربعة أحرف ، ولكنها تقرأ بأسماء هذه الاحرف ساكنة هكذا : ألف . لام . ميم . صاد . والمختار عندنا أن حكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء حروف ليس لها معنى مفهوم غير مسمى تلك الحروف التي يتركب منها الكلام هي تنبيه السامع إلى ماسيلقى اليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لايفوته منه شيء . فهي كاداة الافتتاح « ألا » وها التنبيه ، وإنما خصت سور معينة من الطول والمئين

والمثاني والمفصل بهذا الضرب من الافتتاح لأن النبي ﷺ كان يتلوها على المشركين بمكة لدعوتهم بها إلى الاسلام وإثبات الوحي والنبوة ، وكلها مكية إلا الزهراوين البقرة وآل عمران — وكانت الدعوة فيهما موجهة إلى أهل الكتاب — وكلها مفتتحة بذكر الكتاب إلا سورة مريم وسورتي العنكبوت والروم وسورة ن ، وفي كل منها معنى مما في هذه السور يتعلق باثبات النبوة والكتاب .

فأما سورة مريم فقد فصلت فيها قصتها بعد قصة يحيي وزكريا المشابهة لها ، ويتلوهما ذكر رسالة إبراهيم وموسى واسماعيل وإدريس مبدوءاً كل منها بقوله تعالى (واذكر في الكتاب) والمراد بالكتاب القرآن . فكأنه قال في كل من قصة زكريا ويحيي وقصة مريم وعيسى (واذكر في الكتاب) وذكر هذه القصص في القرآن من دلائل كونه من عند الله تعالى لأن النبي ﷺ لم يكن يعلم هذا لاهو ولا قومه كما صرح به في سورة هود بعد تفصيل قصة نوح مع قومه بقوله (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين) وكما قال في آخر سورة يوسف بعد سرد قصته مع إخوته (ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) وختمت

هذه السورة « أي سورة مريم » بابطال الشرك وإثبات التوحيد ونفي اتخاذ الله تعالى للولد ، وتقرير عقيدة البعث والجزاء. فهي بمعنى سائر السور التي كانت تتلى للدعوة ويقصد بها إثبات التوحيد والبعث ورسالة خاتم النبيين وصدق كتابه الحكيم

وأما سورة العنكبوت وسورة الروم فكل منهما قد افتتحت بعد « ألم » بذكر أمر من أهم الامور المتعلقة بالدعوة ، فالاول الفتنة في الدين وهي إيذاء الاقوياء للضعفاء واضطهادهم لأجل إرجاعهم عن دينهم بالقوة القاهرة . كان مشركو قريش يظنون أنهم يطفئون نور الاسلام ويبطلون دعوته بفتنتهم للسابقين اليه ، وأكثرهم من الضعفاء الذين لاناصر لهم من الاقوياء بحمية نسب ولا ولاء . وكان المضطهدون من المؤمنين يجهلون حكمة الله بظهور أعدائه عليهم. فبين الله في فاتحة هذه السورة أن الفتنة في الدين من سننه تعالى في نظام الاجتماع يمتاز بها الصادقون من الكاذبين ، ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، وتكون العاقبة للمتقين الصابرين . فكانت السورة جديرة بان تفتتح بالحروف المنبهة لما بعدها .

والامر الثاني الذي افتتحت به سورة الروم هو الانباء بأمر وقع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولما يكن وصل خبره الى قومه - وبما سيعقبه مما هو

في ضمير الغيب، ذلك أن دولة فارس غلبت دولة الروم في القتال الذي قد طال أمره بينهما فأخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك وبأن الامر سيدول وتغلب الروم الفرس في مدي بضع سنين . وبأن الله تعالى ينصر في ذلك اليوم المؤمنين على المشركين ، وقد صدق الخبر وتم الوعد ، فكان كل منهما معجزة من أظهر معجزات القرآن ، والآيات المثبتة لرسالة محمد عليه الصلاة والسلام . ولو فات من تلاها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم كلمة من أولها لما فهموا مما بعدها شيئاً ، فكانت جديرة بأن تبدأ بهذه الحروف المسترعية للاسماع ، المنبهة للاذهان ، وكان هذا بعد انتشار الاسلام بعض الانتشار ، وتصدي رؤساء قريش لمنع الرسول صلى الله عليه وسلم من الدعوة وتلاوة القرآن على الناس ، ولا سيما في موسم الحج . وكان السفهاء يلغطون إذا قرأ ويصخبون (٤١ . ٢٦ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

وأما سورة « ن » ففاتحتها وخاتمتها في بيان تعظيم شأن الرسول صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ودفع شبهة الجنون عنه الخ

وقد بينت بعدما ذكر حكمة هذا التنبيه الذي كان من إصلاح القرآن في أساليب اللغة العربية ، وكونه مما يقتضيه علم النفس ، وبلاغة القول ، وتأثير الخطاب ، فيراجع في التفسير فانه مهم جدا

نصيحة إسلامية واجبة

قد علمت أيها المسلم القاريء لهذه المقدمة وهذا الكتاب أن الدكتور طه حسين تكلم في القرآن بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ولا باخلاص في النقد التحليلي الذي يعلو القرآن على مدارك أهله وعقولهم وعلمهم باللغة والدين والتشريع ، وإذ كان القرآن أصل الدين فلا ينبغي للمسلم أن يأخذ علم بلاغته وآدابه ، ولا علم هدايته وتشريعه ، إلا عن خواص العلماء بتفسيره ، ويجب عليه أن يرجع اليهم فيما عسى أن يقرأه أو يسمعه لغيرهم من نقد أو طعن أو رأي فيه يخفى عليه

أما دعاية التجديد التي يبثها الملاحدة الاباحيون بعضهم لبعض ويخدعون بها التلاميذ الاغرار ، والمفتونين بتقليد الافرنج فيما يسهل عليهم من طرز (جمع طراز) الزينة والشهوات ، فليخبرونا أي شيء جديد جاءوا به مما يرقي الامة في اتحادها وأخلاقها وقوتها وعزتها لنبين لهم خطأهم فيه ، ونحن نقول إنهم ماجاؤا بشيء جديد نافع قط ، بل بالضار ، أو أضر الضار المفسد للامة كما بيناه آنفا على أنه غير جديد ، بل هو الذي أفسد أمم الحضارة القديمة وأسقط دولها ، وعقلاء أمم أوربة يخافون سقوطها بمقتضى سنة الله فيمن قبلها .

وأما الاسلوب العصري في النقد الذي اعترفنا بحسنه في جملته

فهو قديم أيضا وأول واضع لأصوله حكيمنا ابن خلدون ، وجرى عليه شيخنا الاستاذ الامام في رده على موسيو هانوتو بما حمل هذا الوزير على اعتذاره للامام ، وجرى عليه أيضا في مقالات الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية الذي طبع مرارا ، ومنه هذا النقض

وأما ما يكتبه هذا الرجل وأمثاله في مسائل الادب اللغوي والتاريخ فمنه الصحيح المقبول ، ومنه الزائف المردود ، وان تطبيق الحكم على الصحيح منها قد يكون خطأ ظاهراً ، وقد يكون محل نظر واستدلال ، كما وقع للحكيم ابن خلدون واضع هذا الفن . وهذا شأن جميع علماء النظر العقلي والشرعي وغيرهم ، فان خطأ الفقهاء في تطبيق الحكم على قواعد الاصول أكثر من خطئهم في القواعد نفسها

ومن راجع ما كتبه بعض الحذاق في النقد التحليلي التفصيلي لكتاب (في الادب الجاهلي) علم قيمة بضاعته المزجاة فيه ، والتقليد المحض لكبار الحكماء والعلماء ينافي العلم الصحيح في القول بتقليد من دونهم ، والحكمة ضالة المؤمن أين وجدها فهو أحق بها (فَبَشِّرْ عبادِي الذينَ يَستمعونَ القولَ فيتَّبعونَ أَحسنَهُ ، أُولئكَ الذينَ هداهم اللهُ وأُولئِكَ همْ أُولو الألباب)

منشىء مجلة المنار
محمد رشيد رضا

نقض مطاعن

في القرآن الكريم

يتضمن تفنيد ما ألقاه الدكتور طه حسين على طلبة كلية الآداب
في الجامعة المصرية

بقلم

محمد احمد عرفه

وكيل كلية الشريعة الإسلامية

وقف على تصحيحه وعلق عليه بعض الحواشي

السيد محمد رشيد رضا

صاحب المنار

(الطبعة الاولى في سنة ١٣٥١)

مطبعة المنار بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم كما هديتنا الى الخير فأعنا على الدعوة اليه ، وكما عرفتنا الحق فوفقنا الى تعريفه للضالين عنه، وكما أريتنا المعروف معروفا ، والمنكر منكراً ، فاجعلنا من الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، اللهم علمتنا فأيدنا بروح من عندك لنذيع ما علمتنا .

اللهم ثبت قلوبنا لنصدع بالحق ، وهب لنا العزم والشجاعة لنجهر بالصدق ، وطهر نفوسنا من حب المال والجاه لنقول ما نعتقد ، ولو باعد ذلك بيننا وبين المال والجاه

اللهم أوذينا في سبيلك فكادت عزائمنا تخور ، وقوانا تهن ، وارادتنا تفل ، فشد من عزائمنا ، وقو من ارادتنا ، وارزقنا من الصبر ما نحتمل به الاذى والمكروه في سبيل الدعوة الى الخير ، اللهم اجعلنا ممن علم فعلم ، ولا تجعلنا ممن علم فكتم ،

فقد قلت في كتابك (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)

أما بعد. فان الاسلام قد مني بقوم من أهله، وقوم من دعاة الاديان الاخرى، ناصبوه الحرب، وراشوا له النبال، وسددوا اليه السهام، فأثاروا حوله الشبه، وأكثروا فيه من الطعن، وعمدوا الى القرآن الكريم فرموه بالافك، وافتروا عليه الكذب، ورموه بعيوب هو منها براء، وكان من أشد هذه الطعون في القرآن خشا وبطلانا طعون ذكر في مجلس النواب أنها لاحد أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية

وإنها مع خشها وبطلانها لم يفندها أحد من أهل العلم (فيما نعلم) فرأيت أن أناقشها، وأبين بطلانها، فكتبت في ذلك كلمة وأتبعتها كلمة أخرى أبين فيها ضرر الالحاد بالامة، وخطر السياسة الالحادية في التعليم، ليرفق الدعاة اليها بأمتهم ويشفقوا عليها، أو ليعلم الناس ضررهم فيتقوا ما يصنعون

الطعن على القرآن العظيم

(في الجامعة المصرية)

ألقى النائب المحترم الدكتور عبد الحميد سعيد بيانا في مجلس النواب في دورة سنة ١٩٣٢ عن موقف الدكتور طه حسين أحد أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية تجاه القرآن الكريم، جاء فيه أن هذا الاستاذ أملى على التلاميذ في سنة ١٩٢٧ نقداً للقرآن وقد ذكره بنصه وهو

« وصلنا في المحاضرة الماضية الى موضوع اختلاف الأساليب في القرآن. وقررنا أنه ليس على نسق واحد، واليوم نوضح هذه الفكرة فنقول : لاشك أن الباحث الناقد، والمفكر الجريء، الذي لا يفرق في نقده بين القرآن وبين أي كتاب أدبي آخر، يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين لا تربط الاول بالثاني صلة ولا علاقة، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة، أو تأثر ببيئات

متباينة . فمثلا نرى القسم المكي منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة ، كما نشاهد أن القسم المدني أو اليثربي تلوح عليه أمارة الثقافة والاستنارة .

فأنتم إذا دققتم النظر وجدتم القسم المكي يتفرد بالعنف والشدة ، والقسوة والحدة ، والغضب والسباب والوعيد والتهديد مثل (تبَّتْ يدا أبي لهبٍ وتبّ * ما أغني عنه مالُه وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأتُه حمالةَ الحطب) (والعصر إن الانسان لفى خسر) (فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد) (كلا لو تعلمون علم اليقين لترونّ الجحيم)

ويمتاز هذا القسم أيضا بالهروب من المناقشة ، وبالخلو من المنطق فيقول (قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون) الى قوله (لكم دينكم ولي دين)

ويمتاز كذلك بتقطع الفكرة واقتضاب المعاني وقصر

الآيات ، والخلو التام من التشريع والقوانين ، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم والفجر والضحى والعصر والليل والنهار والتين والزيتون ـ الى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلة الساذجة التي تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطا

« أما القسم المدني فهو هادىء لين وديع مسالم ، يقابل السوء بالحسنى ، ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة ، والبرهان الساكن الرزين ، فيقول (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ويهجر مع اعدائه الترهيب والقسوة ، ويسلك سبيل الترغيب والتطميع في المكافأة ، فيقول (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (وَمَنْ يَتَّقِ الله يجعلْ له مخرجا ويرزقهُ من حيث لا يحتسب)

(كما ان هذا القسم ينفرد بالتشريعات الاسلامية كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات ، ولا شك أن هذا أثر واضح من آثار التوراة والبيئة

اليهودية التي ثقفت المهاجرين الى يثرب ثقافة واضحة، يشهد بها هذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن .

أما طول الآيات في هذا القسم فهذا أمر جلي ظاهر لأن احدى آياته قد تزيد على عدة سور بتمامها من القسم المكي

أما أفكاره فهي منسجمة متسلسلة ترمي أحيانا الى غايات اجتماعية وأخلاقية . وعلى الجملة فأن ما في هذا القسم المدنى من هدوء ومنطق وتشريع وقصص وتاريخ بدل دلالة صريحة على ان الظروف التي أحاطت بهذا الكتاب أبان نشأته قد تطورت تطورا قويا .

هناك موضوع آخر يجب أن أنبهكم اليه وهو مسألة هذه الحروف العربية غير المفهومة التى تبتدىء بها بعض السور مثل ، الم ، الر ، طس ، كهيعص ، حم ، عسق الخ . فهذه كلمات ربما قصد منها التعمية أو التهويل ، أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف ، أوهي رموز وضعت لتميز بين

المصاحف المختلفة التي كانت موضوعة عند العرب . فمثلا (كهيعص) رمزا لمصحف ابن مسعود (حم عسق) رمزا لمصحف ابن عباس (طس) رمزا لمصحف ابن عمر ، وهلم جرا ، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنا » اه

﴿ الحاجة إلى تفنيد هذه المطاعن ﴾

علمنا إذن أن هذه الطعون في الكتاب الكريم كانت تلقى في الجامعة المصرية كعلم يدرس في مدارس الحكومة المصرية ، وأن عقولا من أبناء المسلمين قد دخلت فيها هذ الافكار ، فماذا فعلنا لتطهير عقول هؤلاء التلاميذ منها ؟

هل كتب أحد ما ينقض تلك الطعون ويزيفها ، ويضع ما كتب في أيدي تلاميذ الجامعة المصرية ليعلموا ان هذا المحاضر كان يتغفلهم ، ويخالف الحقيقة والتاريخ ليخدعهم عن دينهم ؟

إن الشبهة قد ألقيت الى التلاميذ وهم لم يدرسوا

القرآن دراسة تمكنهم من دحضها . ولا تزال عالقة بعقولهم تشككهم في دينهم . ولم يجدوا أحدا من رجال العلم ولا من رجال الدين ينقض هذه المزاعم بالحجة البالغة، والبرهان المنطقي، ويناقشها مناقشة علمية هادئه .

نعم انهم قد وجدوا أولي الأمر قد فصلوا هذا الاستاذ من كلية الآداب بالجامعة، ولكن ليس ذلك في قليل ولا كثير من نقض طعنه وخدش مذهبه . بل ربما وقع في نفوس بعض التلاميذ أن أولي الامر لم يقدروا على هدم رأيه بالحجة فعمدوا الى القوة ، وما كانت القوة يوما من الايام بنافعة في هدم رأي ودحض مذهب

علمنا هذا كله ، وعلمنا أيضا أن هذا الطعن في القرآن حكي في مجلس النواب المصري، وسمعه أعضاء المجلس والنظارة، وطبع فى مضبطة المجلس، وتناقلته الصحف والمجلات ، وقرأه الناس في البلاد العربية، وربما ترجم الى بعض اللغات الاجنبية،

ولـكنهم لم يقرؤوا مناقشة له ولا دحضا

أفما كان من الواجب الحتم علينا لابنائنا في الجامعة الذين نخاف على أقدامهم أن تزلّ بعد ثبوتها ، وعلى عقيدتهم أن تزلزل بعد رسوخها، أن ندلهم على بطلان هذه المطاعن وعلى مكان زيفها ؟ وان نقول للباطل هذا باطل ، وندل الناس على بطلانه . وأن نقول للغث الساقط هذا غث وساقط ونقيم الدليل على غثاثته وسقوطه : بلى كان يجب علينا ذلك لابناء الجامعة ولجمهرة القراء الذين قرؤوا الطعن . وللعلم والتاريخ والدين الاسلامي المجيد

لم يقم أحد بهذا ولا بجزء منه . أجدبٌ في العقول فليست تثمر ؟ أقوة في الشبهة فلم يوجد لها داحض ؟ أم شك العلماء في فهم القراء وعدلهم فظنوا أنهـم لا يعرفون الحق اذا دلوا عليه، ولا قبح القبيح إذا نبهوا اليه وليسوا ينصفون القائل إذ يحكمون له أو عليه ؟

أما أنا فقد وثقت بعقول الناس، واطمأننت الى عدلهم، فلست أعتقد أن أحداً تريه الليل، وتنبهه الى ظلامه ودُجنته ولا يدرك ما فيه من ظلام ودُجنة، أو تريه النهار وضوءه ولا يدرك ما فيه من نور وضياء . وأعتقد أن عدلهم يأبى عليهم ألا أن يقولوا ما يعتقدون، ويؤمنوا بما يعلمون، فليس الذنب اذن ذنب الناس، انما الذنب ذنب أهل العلم إذ تركوا الناس في عماية من أمرهم، ولم يزجروا المبطلين عن غيهم . حتى أخذ الباطل في صولته، وانزوى الحق في جلالته .

بهذه الثقة، وهذا الاطمئنان الى عدل الناس وفهمهم. أتقدم الى القراء بنقد علمي لتلك الطعون الموجهة للقرآن الكريم، وسأكون واضحا مفهوما، أتجنب التعقيد والمداورة. فان كسبت اقتناع الناس فذلك ما أريد، والا فلست أحملهم ذما ولا لوما، وانما أحمل نفسي الذم واللوم، وأجعل التبعة علي لا عليهم

وأعد القراء وعدا صادقا (ووعد الحر دين عليه) ألا أخضع هـذا النقد الا للعلم وحده ، والا أحاكم فيه الا الى قضايا المنطق، وما أثبته التاريخ ، والا أقول فيه هذا كفر، أو هذا يخالف الدين ، وانما أقول هذا يناقض الواقع ، ويخالف التاريخ، لئلا يقولوا: نحن نبحث بحثا علميا، وأنت تخضعنا للدين. فأنا أناقشهم فى هـذا النقد كما يناقش رجل رجلا آخر نقد كتابا من غير الكتب المقدسة، فيعرض نقده على الكتاب ليرى أهو يطابق الواقع أم يخالفه ؟ ولا يجعل من أدلته أن هذا الكتاب مقدس لا يليق أن يطعن فيه هذا الطعن ، أو أنك كفرت بهذه الجرأة المنكرة وخرجت عن قواعد الدين - هذا وعد قطعته على نفسي، فلا يقولن أحد بعد ذلك: هذا تفكير حر - فليس معنى حرية التفكير الا يتقيد المرء بقواعد العلم ، وأن يخرج عن قضايا العقل وينافر المنطق والبرهان

وسيكون شأني مع النقد لا مع الناقد ، وسأرد عليه

كشبهة لم يعرف قائلها ، وسأعرض للشبهة دون أن أعرض لصاحبها، ليعلم الناس أنني انما أردت خدمة العلم لا التشفى من أحد ، فاذا انتهيت من اقامة الدليل عرّفت الناس منزلة هذا الناقد من البحث ، ومبلغه من العلم

تلخيص المطاعن

« يتضمن هذا الطعن في القرآن أمورا » :-

(١) أن القسم المكي يمتاز بالهروب من المناقشة وبالخلو من المنطق فيقول (قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) الى قوله (لكم دينكم ولي دين) أما القسم المدني فيناقش الخصوم بالحجة الهادئة،والبرهان الساكن الرزين،فيقول (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا)

(٢) ان القسم المكي منه يمتاز بكل مميزات الاوساط المنحطة كالعنف والشدة،والقسوة والحدّة،والغضب والسباب والوعيد والتهديد،مثل (تبت يدا أبي لهب)(والعصر إن الانسان

لفي خسر) (فصب عليهم ربك سوط عذاب) (كلا لو تعلمون علم اليقين لترونّ الجحيم) أما القسم المدني فهادىء، لين، وديع، مسالم، يقابل السوء بالحسنى، ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة

(٣) ان القسم المكي يمتاز بتقطع الفكرة، واقتضاب المعاني، وقصر الآيات، والخلو التام من التشريع والقوانين، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم. أما القسم المدني فأفكاره منسجمة، متسلسلة، ترمى أحيانا الى غايات اجتماعية وأخلاقية، وفيه هدوء، ومنطق، وتشريع، وقصص، وتاريخ، وفيه التشريعات الاسلامية كالمواريث، والوصايا، والزواج، والطلاق، والبيوع، والمعاملات

(٤) لاشك أن هذا الرقي الذي حدث للقرآن في القسم المدني أثر واضح من آثار التوراة والبيئة اليهودية التي ثقفت المهاجرين الى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التطور الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن، وهذا يتضمن أن النبي تعلم من

اليهود وأن القرآن من عمله ، فلما اكتسب ثقافة من اليهود ظهر ذلك في أسلوب القرآن المدني

(٥) ان الحروف العربية غير المفهومة المفتتح بها أوائل بعض السور ، اما أن يكون قصد منها التعمية ، أو التهويل ، أو اظهار القرآن في مظهر عميق مخيف ، أو هي رموز لتميز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنا

النقض و التفنيد

(١) الفرق بين المكي والمدني من القرآن

أصحيح أن القسم المكي من القرآن كان خاليا من المنطق ، وكان يهرب من المناقشة ، وأن القسم المدني هو الذي كان فيه الحجة والبرهان ؟.

اننا نجيب على ذلك (أولا) بتسليم أن القسم المدني فيه برهان ومنطق ، و (ثانيا) بأن القسم المكي كذلك مفعم بالمنطق والبرهان ، وأنه ما كان يهرب من المناقشة بل

كان يقرع بالحجة ، ويصول بالدليل ، وإن الناقد نفسه ليعيننا على نفسه، ويقدم لنا الدليل على نقض قوله، فهو يلقي اليد بأن قول الله(لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) فيه حجة هادئة، وبرهان ساكن رزين ، ولكنه يزعم باطلا أنها من المدني ، لامن المكي

ونحن نقول له وللناس جميعا : إنها مكية لا مدنية ، وإثبات ذلك سهل يسير ، فتلك الآية من سورة الانبياء، وسورة الانبياء مكية، ارجعوا الى أي كتاب من تلك الكتب التي ميزت المكي من المدني تجدوا ذلك موضحا، بل ارجعوا الى أي مصحف من المصاحف تجدوا هذه الآية في سورة الانبياء، وتجدوا سورة الانبياء قد كتب في أولها أنها مكية، وآياتها ١١٢ آية ، وأنها نزلت بعد سورة ابراهيم

فان لم يكف هذا وأبيتم الا أن تسمعوا أقوال المؤرخين الذين ميزوا المكي من المدني نقلنا لكم ماقالوه

قال فخر الدين الرازي في تفسيره : سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام مائة واثنتا عشرة آية مكية . وقال السيوطي في أسباب النزول : انها مكية

وقال صاحب روح المعاني: انها نزلت بمكة ، كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم، وفي البحر أنها مكية بلا خلاف ، وأطلق ذلك فيها واستثنى منها في الاتقان قوله تعالى (أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها) الآية

وقال الشهاب على البيضاوي : انها مكيـة بالاتفاق ، وسميت بذلك لذكر قصص الانبياء فيها اه

فأنتم ترون أن علماء هذا الشأن قد حكوا الاتفاق على أنها مكية ، ولم يحك أحد أن فيها آية مدنية إلا السيوطي فانه استثنى منها في الاتقان آية (أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها) ومن ذلك نعلم أن الكل مجمعون على أن ماعدا آية (أفلا يرون أنا نأتي الارض) من سورة الانبياء مكي ،

ومن ذلك آية (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) فهم مجمعون
على انها مكية، ولم يخالف أحد من أهل العلم في ذلك

*
* *

هذه سقطة لا يئل من سقطها لليدين وللفم، أكان يظن
ظان أن هذا المعترض الجريء يقدم بيده الحجة لخصمه عليه،
ويفند قوله بقوله، ويكون عونا لنا على نفسه، مثل هذا
الناقد فيما كيابه، مثل من يقول: ان انكلترا لم ترزق في عصورها
المختلفة شاعراً مجيداً، وأما فرنسا فقد رزقت من الشعراء النوابغ
عددا ليس بالقليل، هذا شكسبير شاعر فرنسا العظيم، تعجز
انكلترا أن تجيء بمثله

صه. لا يسمعك الناس، ان شكسبير شاعر انكليزي
لا فرنسي، وما دمت قد أعطيت اليد بأنه شاعر عظيم
وما دام الواقع يثبت أنه انكليزي، فقد نقضت دعواك أن
انكلترا لم ترزق بشاعر نابغ.

لقد قرأت القرآن، واستقرأت مكيه ومدنيه، فرأيت

أقوى البراهين وأروعها ، وأظهرها وأنصعها، وأقمعها للجاحد وأملكها لقوى المعاند، هي تلك البراهين المبثوثة في القسم المكي من القرآن ، وأن القسم المكي لم يكن يهرب من المساجلة، وانما كان يقتحمها، وما كان يولي الادبار، بل كان يقدم على الخصوم اقدام الواثق بقوته ، المؤمن بحجته ، المطمئن الى عزة الحق، وفوز اليقين

لم يدع القسم المكي مطلبا من مطالب أصول الايمان إلا أقام الدليل عليه ، ولم يدع شبهة من شبه الكافرين الا دفع في صدرها بالحجة .

لاأدري كيف تسنى للطاعن أن يزعم خلو القسم المكي من المنطق، وهروبه من المناقشة!!! ألا يعلم أنه ينكر كما يقول رجال القانون الوقائع المادية ، وأنه ليس أسهل على خصمه من أن يريه ويري الناس تلك الحجج والمناقشات التي في القسم المكي، وأن يبين له مافيها من منطق وبرهان ، فتكون الفضيحة ، وتكون الهزيمة ، وهذا ما سنفعله .

أكبر الظن أن الطاعن لم يفهم أدلة القسم المكي ولا براهينه، وأعجزه أن يستبطن حجتها، فتورط فيما تورط فيه، ولا أظن أنه يعلمها ويغالط فيها، لأني لا أخال خصما يحترم نفسه، يلجأ في المغالطات الى انكار الوقائع المادية، بل هو يلجأ الى ما هو أصعب هدما، وأشد التواء على خصمه

وسأسوق اليكم نماذج من مساجلات القسم المكي، وما فيها من منطق لتكون عنوانا على ماوراءها، فتعلموا كم أساء صاحب هذا الطعن، الى العلم والى التاريخ

النموذج الاول الحجج على البعث

وفيه شــواهد

قد كان العرب ينكرون البعث لشبه قامت عندهم (١) فحكى الله مذهبهم وشبههم، وكر عليها بالحجج المبطلة لها والمثبتة للبعث .

الشاهد الأول

قال في سورة ق المكية (ق ، والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد * قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ * بل كذّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مَريج * أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والارض مددناها وألقينا فيها رواسي

---

(١) انما أنكر البعث من أنكره منهم ومن غيرهم لاستبعاد وقوعه، والعجب من حكايته كما يعلم من الشواهد الآتية.

وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج * كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون واخوان لوط * وأصحاب الايكة وقوم تُبَّع ، كل كذب الرسل فحق وعيد * أفعيينا بالخلق الاول؟ بل هم في لَبس من خلق جديد)

هم يستبعدون البعث والاعادة فيقول لهم لقد خلقناما هو أعظم . أفلم تنظروا الى السماء فوقكم كيف بنيناها؟ والى الارض تحتكم كيف مددناها؟ ثم قال انظروا الى الماء كيف نجريه الى أرض قاحلة لا زرع فيها ولا حياة فنحييها به، فتخرج جنات وحب الحصيد، كذلك الخروج، خروجكم من أجداثكم، ثم قال (أفعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد) أفعجزنا عن خلقكم أولا حتى تنكروا خلقكم ثانيا، من قدر على البدء فهو قادر على الاعادة ـ بل هي عليه أهون

أفهروب هذا من المناقشة . أم تقحم فيها ؟ أخلو هذا من المنطق، أم أنتم لاتبصرون ؟

الشاهد الثانى

في سورة سبأ المكيـة (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مُزّقتم كل ممزّق إنكم لفي خلق جديد؟ * أفترى على الله كذبا أم به جنة؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد * أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ان في ذلك لآية لكل عبد منيب)

فهم يعيدون الشبهة ويعيد عليهم الحجة بالاساليب المختلفة

ولقد أبرز هذه المحاجة في صورة تبين خذلانهم وافحامهم ولجاجهم وهروبهم من الحجة حين أقامها عليهم الى شيء لم يكن موضع جدال ولا وقعت فيه خصومة

الشاهد الثالث

قال في سورة الاسراء المكية . (قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذي فطركم أول مرة، فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريبا)

يقول: قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما ترونه عظيما لا يلين للطالبين، ويعجز القادرين، فسيقولون من يعيدنا؟ قل الذي فطركم أول مرة ، فالذي خلقكم أولا يعيدكم ثانيا ، فسيحركون اليك رؤوسهم عجزا واستخذاء ، ويهربون من الحجة اذا بهرت ، ومن البينة اذا سطعت ، ويقولون متى هو؟ أيجدون أم يهزلون؟ هل كان النزاع في متى هو أم كان النزاع في إحالته ؟ ولكن الله لم يشأ إعناتهم فقال لنبيه (قل عسى أن يكون قريبا)

الشاهد الرابع

قال في سورة القيامة المكية . (أيحسب الانسان أن

يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والانثى * أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى) ؟ بلى هو قادر

الشاهد الخامس

في سورة يس المكية . (أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فأذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فأذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون) ما أبلغ قوله ونسي خلقه !! أي لو ذكر خلقه لما أنكر الاعادة ، وهذا كما تقول لمن أحسنت اليه وجحد الاحسان : أتجحدني إحساني اليك ، وتنسى الثياب التي عليك ؟

ولما كان تعذر الاعادة انما يكون لقصور علمه » أو قصور قدرته» بين أنه لا جهل عند من هو بكل شيء عليم ، ولا عجز عند من خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن .

النموذج الثانى

(البراهين على وجود إله للعالم وخالق للكون في القسم المكى وفيه شواهد)

الشاهد الأول

قوله تعالى في سورة النبأ المكية (ألم نجعل الارض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم أزواجا. وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا. وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا. وجنات ألفافا)

الشاهد الثانى

في سورة عبس المكية (فلينظر الانسان إلى طعامه أنا

صببنا الماء صبا . ثم شققنا الارض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم)

الشاهد الثالث

في سورة الفرقان المكية (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا * وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكورا)

وما تلونا عليك يشير إلى دليل برهانى، ليس أسطع ولا أقوى منه، وهو مع ذلك على غاية من الوضوح والسهولة، يكاد يكون في طبيعة الخلق جميعا . فهو يشير إلى أن هذا الكون خلق ككائن واحد ، وأن بعضه مكمل لبعض والغاية والعناية تظهران في كل مافيه، فقد مهدت الارض لتصلح لسكنى الانسان والحيوان والنبات وجعلت الجبال لتمسكها أن تزول ، وخلق الذكر والانثى من الانسان والحيوان والنبات ليتوالدوا

ويعمر بهم الكون . وجعل الليل سكنا لهم . والنهار ليزاولوا فيه معايشهم ، وجعلت السماء بحيث لا تنطبق على الارض ، وجعلت فيها الشمس سراجا مضيئا ، بل أين منها كل السرج والثريات الكهربائية في جميع أنحاء المعمور ؟ إنها لا تغني غناءها ، ولا تضيء ضوءها ، ولولاها لكان الناس في ظلام دامس ، تثقل عليهم الحياة . ولا يقدرون على تحصيل عيشهم ومتعهم . وكما أنها منبع للنور هي منبع للحرارة التى بها الحياة . ولولا الحرارة التي تنمي الكائنات ، لما وجدت حياة حيوان ولا نبات . وأنزل ماء كثير كان به حياة الناس في سقيهم وإخراج الزروع التى بها حياتهم وحياة مواشيهم . وكل هذا يدل على أن له خالقا خلقه ورتبه هذا الترتيب المحكم ، ونظمه هذا النظام البديع ، وأراد منه هذه الفوائد ، إذ قد جبلت العقول وأودعت الفطر أن كل فعل منظم ، فيه غاية معينة ، فهو عن فاعل ، لم توجده المصادفة ، ولم يوجد وحده

ومثل الدهري الذى ينكر الآله كمثل رجل يرى ساعة دقاقة، ذات عقارب وتروس وعدد ومسامير، قد فصلت وركبت أجزاؤها ليدير هذا ذاك وذاك هذا إلي الاخير فيدير العقربين فتسيران على سطح مقسم إلى (اثنى عشر قسما وكل قسم إلى خمسة أقسام) لتدلا على الساعات والدقائق ثم يزعم أن هذا الصنع المحكم، والنظام المتقن، الذي شملته العناية، وعمته الغاية. وأريد منه شيء مخصوص بحيث لو فقد جزءاً من أجزائه، أو لو ركب أي جزء منه غير هذا التركيب، أو وضع غير هذا الوضع، لما تحركت الساعة هذه الحركة المنتظمة، ولما دلت على أجزاء الزمن ومعرفة الاوقات . — نقول: يزعم أن هذا الصنع المحكم أوجدته المصادفة، وليس له فاعل مختار — هوس تنبو عنه الفطر، وتمجه العقول

وإن أي جزء من الكون أشد تعقيدا وأكثر آلات من الساعة . هـذا الانسان مثلا كم فيه من آلات دقيقة وأجهزة . وكم فيه من أعضاء خفية لها وظائف لولاها لم تقم

حيـاته به ، فجهاز للتنفس ، وجهـاز للهضم ، وجهاز الدورة الدموية . وآلات للشم وأخرى للبصر . وثانية للسمع وثالثة للحس ورابعة للحركة . وان كل ما فيه ليؤدي وظيفته

ثم أنه ركب على نحو من التركيب المحكم الصنع ، المنظم الوضع ، ليتمكن من أداء تلك الوظيفة تمكناً سهلاً مريحاً (فاليدان مثلا جعلتا بحيث يعمل بهما المرء من غير عنت ومشقة) ولذلك كانتا ذواتي مفاصل عـدة ، صالحة للانقباض والانبساط ، ولو جعلت اليـد كالخشبة لما أمـكن أن تؤدي مهمتها . وإذا كانت الساعة لما فيها من تركيب ودقة يحيل العقل ان تـكون صدرت إلا عن فاعل ، فبالحرى يحيل العقل أن يكون الانسان صادراً إلا عن فاعل .

وكذلك قل في كل ما في الـكون من أجزاء ففيها تناسب في نفسها ، وهي مناسبة بعضها لبعض . وهذا هو الدليل الذي أشارت اليه الآيات المكية التى تلوناها عليك ، وهو مع سهولته

التي يفهمه لأجلها الجمهور برهاني ، يقبله أولوا العلم ويقنعهم ، ولكنهم يفضلون العامة في فهمه ، لا من جهة أنهم يطلعون على حكم كثيرة في الكون أكثر مما يعلمه الجماهير فقط ، بل من جهة الكيفيـة أيضا ، فعالم التشريح مثـلا يعلم من خواص الاعضاء أكثر مما يعلم الجمهور ، ويعلم كيفيتها ودقتها ، ولذلك كلما ازداد المرء علما بالكون ازداد علما ويقينا بوجود الخالق وقدرته وعلمه وعظمته إذا انساق مع فطرته ولاحظ ما نبهنا اليه

نقل الفيلسوف سبنسر عن الاستاذ هكسلي ما يأتي:

« ليس العلم الطبيعي منافيا للدين بل المنافي للدين هو ترك ذاك العلم ، والامتناع من دراسة المخلوقات المحيطة بنا ، — واليك مثلا حقيراً —

إذا كان أحد الكتاب لا تزال الناس تمدحه وتثني عليـه بأبلغ عبارات الشكر والتمجيد ، وإذا كانت مواضع هذا الحمد والثناء هي حكمة مؤلفات ذاك الكاتب وجلالها وجمالها ، وإذا

كان مادحو تلك المؤلفات يكتفون بالنظر إلى ظواهرها، فهم لم يفتحوها قط ليفهموا ماتحتويه، فأي قيمة تكون إذا لذاك الثناء والمدح، هذه اذا قست الامور حال البشر عموما إزاء هذا الكون وصانعه، فالتوجه للعلم الطبيعي عبادة صامتة هي اعتراف صامت بنفاسة الاشياء التي تعاين وتدرس، ثم بقدرة خالقها، فليس التوجه للعلم تسبيحا شفهيا، بل هو تسبيح عملي ليس هو باحترام مدعى، بل احترام أثبتته تضحية الوقت والتفكير والعمل »

الشاهد الرابع

في سورة الغاشية المكية (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت * والى السماء كيف رُفعت * والى الجبال كيف نُصبت * وإلى الارض كيف سُطحت * فذكّرْ إنما أنت مذكّرْ * لست عليهم بمسيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الاكبر * إن الينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم)

هذا حض على النظر في الطبيعة ومعرفة أسرارها، ليتوصل من ذلك إلى معرفة المبدع الاول، فقد اتحد الطريقان طريق الفلاسفة الطبيعيين، وطريق القرآن الكريم

النموذج الثالث

﴿ ما أقام من الادلة على وحدانية الله وفيه شواهد ﴾

الشاهد الأول

في سورة الانبياء المكية (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)

الشاهد الثانى

في سورة المؤمنون المكية (قل لمن الارض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا

يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون *
بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون * ما اتخذ الله من ولد وما
كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على
بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى
عما يشركون)

النموذج الرابع

﴿مناظرته إياهم عند ما كانوا يحاورونه في نفي رسالته وفيه شواهد﴾

الشاهد الاول

في مفتتح سورة الأنبياء المكية (اقترب للناس
حسابهم وهم في غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم
مُحْدَث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهيةً قلوبُهم وأسروا
النجوى الذين ظلموا: هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر
وأنتم تبصرون؟) (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم
فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون)

استبعدوا أن يكون محمد رسولا نبيا لانه بشر مثلهم فقال الله ردا عليهم (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي اليهم) نوحا، وابراهيم، وموسى، وعيسى، والانبياء السالفين، وأنبياء بني اسرائيل (فاسألوا أهل الذكر) من اليهود والنصارى (ان كنتم لا تعلمون)

الشاهد الثانى

في سورة الفرقان المكية (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا. أو يلقى اليه كنز. أو تكون له جنة يأكل منها، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا. أنظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا. تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا - الى ان قال - وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا)

الشاهد الثالث

في سورة الاحقاف المكية . (أم يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم . قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان أتبع إلا ما يوحى الى وما أنا إلا نذير مبين)

النموذج الخامس

﴿ مناظرته إياهم حينما زعموا أنه يعلمه بشر ﴾

في سورة النحل المكية — ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهـذا لسان عربي مبين)

النموذج السادس

﴿ مناظرته إياهم حينما كانوا يرون أن العاقبة لهم وهو يرى أن العاقبة للمؤمنين وفيه شواهد ﴾

الشاهد الأول

في سورة القمر المكية قال عقيب اخباره عن عقوبات الامم المكذبة لرسلهم كقوم فرعون وعاد وثمود . (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر)

يقول أهلكت هذه الامم لانهم كذبوا الرسل، وأعرضوا عن هدايتهم، وأصروا على شركهم وخرافاتهم ، وأنتم مثلهم فسيصيبكم ما أصابهم ، وإذ كنتم شركاءهم في علة الهلاك فانتم شركاؤهم في وخامة العاقبة، وسوء المنقلب

الشاهد الثانى

في سورة الاحقاف المكية في شأن قوم عاد (فلما

رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم * تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين * ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون)

*
* *

يقول ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه، فحكمكم كحكمهم وإذا كنا قد أهلكناهم بمعصية رسولنا فلم يدفع عنهم ما مكنوا فيه من أسباب العيش والقوة، فأنتم كذلك تسوية بين المتماثلين اللذين اشتركا في علة الحكم

الشاهد الثالث

في سورة الانعام المكية . (ألم يروا كم أهلكنا من

قبلهم من قرن مكناهم في الارض مالم نمكن لكم(١) وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين * ولقد استهزيء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون. قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين)

أمر بالسير في الارض ليعتبروا وليعلموا ما حاق بالمكذبين المستهزئين الفاسقين عن السنن الالهية – وللكافرين أمثالها

---

(١) جاء في نكتة البلاغة ودقة اللغة في الآية من تفسير المنار ان فيها احتباكا تقديره (مكناهم في الارض مالم نمكنكم ، ومكنا لهم مالم نمكن لكم) ومعنى الاول أنهم كانوا أشد منكم قوة وتمكنا في أرضهم ، فلم يوجد حولهم من يضارعهم في قوتهم ، و يقدر على سلب استقلالهم ، ومعنى الثاني أننا أعطيناهم من أسباب التمكن في الارض وضروب التصرف وأنواع النعم مالم نعطكم . فحذف من كل من المتقابلين ما أثبت نظيره في الآخر ، وهذا من أعلى فنون الايجاز الذي وصل في القرآن الى أوج الاعجاز ، و يصدق كل من التمكينين على قوم عاد وثمود وقوم فرعون وغيرهم كما يعلم من قصص الرسل في القرآن ومن التاريخ العام

أيها السائل عما مضى من علم هذا الزمن الذاهب
ان كنت تبغي العلم أو نحوه في شاهد يخبر عن غائب
فاعتبر الشيء بأشباهه واعتبر الصاحب بالصاحب

***

تأن في الامر إذا رمته تبين الرشد من الغي
لا تتبعن كل نار ترى فالنار قد توقد للكي
وقس على الشيء بأشكاله يدلك الشيء على الشيء

الشاهد الرابع

في سورة المزمل المكية . (انا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا . فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا * فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا . السماء منفطر به كان وعده مفعولا)

يقول: انا أرسلنا محمدا اليكم كما أرسلنا الى فرعون موسى فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا . فهكذا من عصى منكم محمدا

لقد كان في بعض ما أوردناه من الآيات كفاية فيما قصدناه -
من اثبات مساجلة القسم المكي من القرآن الخصوم ، وعدم -
هروبه من المناقشة ، وإثبات أن فيه منطقا وعقلا . ولكننا أردنا
أن نطيل النفس في هذا الموضوع لتكون الحجة ألزم ، والبينة
أسطع ، ولانها دراسة نافعة لقسم عظيم من القرآن ، يتبين فيها
المرء كيف كان جداله مع خصومه ، ويستعرض فيها شبه الخصوم -
ورده عليها ، وأظن أن هذه دراسة نافعة وغير مملة ، ان لم نقل
انها شيقة وممتعة ، فمن شاء فليقتصر على ما قدمناه ، ومن أراد -
المزيد من هذا الدرس فليقرأ القسم المكي منه ففيه من هذا
الشيء الكثير ، وقد فتحنا لكم بابه

لقد علمنا من كل ما تقدم أن القسم المكي من القرآن يكاد -
يكون كله حجاجا وجدلا مع الكافرين ، وفيم كان يتكلم ان لم
يحاور ، ويرد الشبهة ، ويفلج بالحجة . وان الذي يزعم أنه كان
يهرب من المناقشة وأنه خال من المنطق لم يدرس هذا القسم
منه فجهله ، أو هو قد درسه وعلم ما فيه ووثق من أن سامعيه -

لم يدرسوه ، فأراد أن يلبس عليهم ويزور، ورأي المجال واسعا للبس والتزوير

وأما سورة الكافرون التي استدل بها على هروبه من المناقشة، فليس يأخذ أحد منها الهروب من المناقشة، فقد ذكر المؤرخون في سبب نزولها ان كفار قريش طلبوا من محمد أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا هم آلهه سنة، فنزل (قل ياأيها الكافرون لاأعبد ما تعبدون) ايئاسا لهم وسدا لطمعهم أن يلين محمد أو يعترف بعبادة ما كانوا يشركون. على انه إذا لم يطلع المرء على سبب هـذا النزول لا يمكن أن يفهم منها الهروب من المناقشة ، إذ هو يراه في جميع الآيات قد أقام عليهم الحجج وأخذ بمخانقهم، وسد عليهم كل باب (١) ثم جاءهم في هذه الآية فقال (لكم دينكم ولى دين) كما يقول القائل لمن أقام هو عليه الحجة: قد أقمت الدليل، ووضحت السبيل، ولك بعد ما تختار،

---

١) أو كما قال الامام عبد القاهر في دلائل الاعجاز: قد أسال عليهم الوادي عجزاً ، وأخذ عليهم منافذ القول أخذاً

لك ماتريد ولي ما أريد، إذلالا بقوته، وتبكيتا لخصمه، واشعارا له بأنه إذا سلك ما سلك ، فعن ضعف في العلم والارادة والاختيار، وعن جهل بالنافع والخير

أهذا هو النقد العلمي، والبحث المنطقي؟ اللهم ان القوم قد تلاعبوا بالألفاظ، وبعدوا بها عن معانيها ، وأطلقوها على اضدادها . فهذا النقد يصح أن يسمى أي شيء إلا اسم العلم، وأن يدخل في أيّ باب الا باب البحث - سَمُّوا الأشياء بأسمائها، ودعوا الخداع والمراوغة ، وقولوا : إلحاد باسم العلم نسميه ، وضلال باسم البحث نزجيه، وما بنا خدمة البحث والتفكير ، ولكن بنا فتنة ابناء المسلمين عن دينهم لحاجة في دخيلة النفس، نجمجم دونها ولا نظهرها، ونظهر غيرها ونسترها

تفنيد الطعن الثاني

أصحيح أن القسم المكي من القرآن يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة كالعنف والشدة ، والقسوة والحدة ، والغضب والسباب ، والوعيد والتهديد

لقد قال الناقد ذلك واستدل بسورة (تبت يدا أبي لهب) (والعصر ان الانسان لفي خسر) (فصب عليهم ربك سوط عذاب) (كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم) وزعم ان القسم المدني وديع مسالم يقابل السوء بالحسني

ونحن نخالفه في هذا ونرى أن القرآن جميعه يمتاز بكل أنواع السمو والرفعة ، والوقار والجلال ، فهو اذا اشتد فعلى الفاسقين المفسدين يشتد ، واذا لان فللصالحين الأخيار يلين ، ولا تنس أن شدته هذه ولينه في الوعد والوعيد ، وكلاهما لصلاح النوع الانساني ، وما يعاب كتاب كالقرآن بذلك

أما الآيات التى استدل بها على أن في القرآن سبابا وما الى ذلك من مميزات الأوساط المنحطة، فسنناقشه فيها آية آية

(براءة سورة تبت يدا من هذه العيوب)

أما سورة (تبت يدا أبي لهب) فليس يعرف الناقد سبب نزولها، ولذلك تورط فيما تورط فيه، ونحن نسوق سبب نزولها ومعناها ليعلم الناس انها ليست سبابا، وانما هى وعيد وانذار

أخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا فقال «ياصباحاه» فاجتمعت اليه قريش فقالوا مالك؟ قال «أرأيتكم ان أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوني؟ قالوا بلى، قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال ابو لهب تبا لك، ألهذا دعوتنا وجمعتنا؟ فأنزل الله (تبت يدا أبي لهب) الى آخرها

وأخرج أيضا عن ابن عباس في قوله (وامرأته حمالةَ الحطب) قال كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبي ﷺ ليعقره وأصحابه . ويقال حمالة الحطب نقاله الحديث ، فهو

ينذر أبا لهب بأنه خسر وسيصلى ناراً، لانه لم يؤمن بالله وصد عن سبيله، وستكون امرأته كذلك لعدم ايمانها، ولانها تؤذي النبي وأصحابه بوضعها الشوك في طريقه ليعقره، أو لانها تنقل الحديث وتمشي بالنميمة بين الناس. أرأيت الآن انها ليست سباباً، وانما هى انذار ووعيد لابي لهب وامرأته لصدهما عن الاسلام، وهذا الانذار خير أبي لهب وامرأته، وخير العالم، إذ من خير العالم ألا تقام العراقيل في سبيل مرشديه الى طريق الخير، وهاديه الى سواء السبيل، ومجدديه كلما بلي وتعفن، وطغت فيه الرذيلة على الفضيلة

(براءة سورة والعصر)

وأما سورة (والعصر. إن الانسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فلا أدري مافي هذه من حدة وعنف وسباب !!! ان السورة تشير الي قضية ثابتة من قضايا الكون التي تتغير الارض ومن عليها ولا تتغير، وهى أن الناس قسمان: قسم قوي ايمانهم ورسخ

يقينهم وعملوا الصالحات، واستمسكوا بالحق وبالصبر، فاعتدلت قوتهم العلمية، واستقامت أعمالهم، وحسنت أخلاقهم. وكان رائدهم الحق، وأعمالهم مبنية على الصبر، وهم يتواصون فيما بينهم بالحق والصبر، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهؤلاء هم الذين كتب لهم الظفر بالسعادة والنجاح

وقسم على النقيض من سابقيهم، قد ضعف ايمانهم، وزلزل يقينهم، وكانت أعمالهم ظالمة وجائرة، وأخلاقهم فاسدة، ولم تكن للحق سيطرة على قلوبهم، وكانوا ضعفاء الارادة، لا يثبتون على شيء، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، فهؤلاء في خسار وفي تبار

هل اختبار الافراد والامم من بدء الخليقة الي الآن الا يصدق هذه القاعدة الخلقية الابدية، والقسم المكي قد ذكرها ليحض الناس على أثمن ما في الكون وهو اليقين وحب الحق، وعمل الصالح، والصبر على ما في الوجود من شدائد،

والتواصي بالخير ، ولينفر الناس من اضدادها، ثم الناقد يزعم هذا السمو في العلم . وهذا الحب للخير ، عنفا وشدة وسبابا . ليسمها ما شاء من أسماء ، فستبقى دائما أم الفضائل ، وكنزاً من كنوز الوجود ، ومنبعا عظيما للخير والفضيلة

أليس من الانتكاس في الخلق ، والتردي الى أسفل دركات الهمجية ، والارتكاس في هاوية الانحطاط والضعة أن يستقبح امرؤ (سورة والعصر) ويعيبها ، ويستجيد أبيات المجون والخلاعة ، كقول ابي نواس

اذكر الخمر بآلائها   وسمها أحسن اسمائها

ان هذه السورة لا تثقل الا على نفور من الفضيلة ، نزاع الى الرذيلة ، فيكربه ما فيها من فضائل علمية وعملية ، ولست أعلم احدا تثقل عليه الا اثنين : ابليس الرجيم ، وهذا الناقد الماجن

انظروا هل تقدمت امة أو رقي فرد الا بهذه الفضائل ؟

وهل انحط فرد أو أمة الا بشيوع أضدادها من الرذائل فيها؟ أليس فقدان الايمان أو ضعفه مما يضعف الامة؟ أليست الاعمال الفاسدة من الظلم ، والرشوة ، وأكل السحت وعدم احترام الحق وعدم التواصي به مما يضعفها أيضا ؟ أليس خور العزيمة ، وفقدان الصبر ، مما يبيد الامم ؟ أليست هذه الرذائل مجتمعة في أمة قاضية وشيكا بزوالها من الوجود ؟

لو قدر أن يبيد هذا العالم وما فيه من علم وأدب وحكمة ، ونشأ جيل جديد لم يرث شيئا من علم الاولين وأخلاقهم . ولكنه بقي له سورة (والعصر) لكان فيها سداد من عوز ، وعوض عن الجميع ، ولجاز أن تكون مادة اصلاح يحيا عليها ذلك الجيل الجديد ، ويجد فيها أصول الفضائل العلمية والعملية

قال الاستاذ الامام في تفسير هذه السورة «ثم تراها لم تدع شيئا إلا أحرزته في عباراتها الموجزة ، حتى قال الامام الشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم ، وقال : لو لم ينزل

من القرآن سواها لكفت الناس ، وللجلالة ماجمعت روي أنه كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة والعصر ثم يسلم على الآخر ، ذلك ليذكر كل منهما صاحبه بما يجب أن يكون عليه » اه (١)

وما قيل هناك يقال مثله في هذه السورة الكريمة (ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم .

---

(١) وجملة القول في السورة أنها قررت قاعدة اجتماعية لنوع الانسان انه يكون في خسر من سيرته وعمله في زمنه الا الذين يجمعون بين الايمان الصحيح والعمل الصالح في حياتهم الشخصية، وبين التواصي بالحق والتواصي بالصبر الذي يعينهم على النهوض به في حياتهم الاجتماعية ، فليس في هذه الحكمة العالية سب ولا غلطة على احد ولا على قوم، لانها بيان لحقيقة حال النوع ، وأما الاقسام عليها بالعصر ففيه تعريض بمتبعي الاوهام، الذين يتشاءمون بالزمان، وارشاد الى ان الوقت هو رأس المال ، واضاعته هي الخسران

ثم لَترَوُنَّها عينَ اليقين . ثم لَتُسئَلُنَّ يومئذ عن النعيم)

فهذه السورة تسمو بالناس عن رذائل حطام الدنيا، وترتفع بهم إلى الروحانيات والفضائل الباقية، فتقول لهم: ألهاكم عن الخير التكاثر من الاموال، وعرض الدنيا الفاني، ثم تحذرهم عاقبة ذلك

وفي الحق ما أفسد الناس إلا اتكالهم على الدنيا قال ﷺ «الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم وإنهما مهلكاكم»(١) وقال «ماذئبان جائعان أرسلا في حظيرة غنم بأفسد لها من حب المرء للمال والشرف»(٢) فاذا جاءت هذه السورة تنهي الناس عن التكاثر، وتحذرهم عاقبته الذميمة، وصفت بأن فيها ما في الاوساط المنحطة من شدة وسباب

---

(١) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ولم أره في غيره

٢) أخرجه ابن عبد البر بهذا اللفظ وأحمد والترمذي من حديث كعب بن مالك بلفظ «أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» ناط الافساد بالحرص على المال والجاه لانه هو الذي يغري بتنكب الرشد واتباع الغي في طلبهما والتصرف فيهما، وأما الحب فهو من غرائز الطباع .

وأما قوله (فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد) فذلك في القوم الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فهو يخبرنا بذلك لنحذر أن نطغى مثل طغيانهم، ونفسد مثل فسادهم

﴿ ميل القسم المكى الى اللين والعفو ﴾

وبالجملة دعواه أن القسم المكي ينفرد بالحدة والشدة الخ تكذبها دراسة القرآن نفسه، وما عرف عن القسم المكى من ميله إلى اللين والعفو، اقرأ قوله تعالى في سورة الشورى المكية (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب

الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل *
إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير
الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولَمَنْ صبر وغفر إن ذلك لَمِن
عزم الامور)

وقال في سورة فصلت المكية (ومن أحسنُ قولا ممن
دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين * ولا تستوي
الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه
عداوة كانه وليٌّ حميم . وما يُلقّاها إلا الذين صبروا وما
يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم) (١)

وقال في سورة الحجر المكية

(ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم * لا تمُدّن
عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض

---

(١) أرشد الى هداية العقل وتحكيمه فى التفرقة بين الحسنة والسيئة وفي عواقب الاعمال وغاياتها في المعاملة ، وكون الحسنى تحول العداوة ، الى الحب والولاية

جناحك للمؤمنين * وقل إني أنا النذير المبين * كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين * فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون * فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون * ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)

﴿ اشتمال كل من المكي والمدني على الوعد والوعيد ﴾

ولعله يريد من الشدة والعنف التهديد والوعيد، ومن اللين الوعد، فان أراد ذلك قلنا إن المكي فيه وعد وإطماع، كما المدني فيه تهديد ووعيد، ومن عادة القرآن أن يجمع بين الوعد والوعيد لئلا يقطع الناس الامل، أو يتكلوا فيتركوا العمل، اقرأ قوله تعالى في سورة الحجر المكية (نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم) وقوله في

سورة الزمر المكية (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم) ثم اقرأ في سورة البقرة المدنية . (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) واقرأ في سورة النساء المدنية (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا)

هاءنذا إلى الآن في هذين القسمين قد وفيت بما وعدت فلم أخاصم الناقد الى الدين ، بل خاصمته الى العقل ، ولم أحتج عليه بأن هذا الكتاب مقدس ، بل احتججت عليه بأن نقده لا يطابق الواقع ، وأقمت له من الشواهد والامثال ما به يؤوب المنصف الى حظيرة الحق ، ويخزي المكابر ، ويظل وجهه مسودا وهو كظيم .

وقد وفينا أيضا بما وعدنا من أننا نعرض للفكرة لا لصاحبها ، فناقشنا الفكرة ، دون أن نعرض للناقد ، وحملنا النفس على مكروهها إذ رأينا كلاما أشبه بهذيان المحموم ، فجادلناه كأنه عن عاقل صدر ، وسمعنا مايغثى النفس فتصبرنا ، وما يهيج الاعصاب فاحتملناه فهل يحلني القراء بعد ذلك لاقول في الناقد كلمة ؟ لا أظن الا أنهم يحلونني ، فقد ضجروا كما ضجرت ، وأثقلوا كما أثقلت .

كلمة فى هذا الطاعن على القرآن

لقد قرأت ما كتبه دعاة النصرانية والملاحدة، وما كتبه هذا الناقد في نقده، فرأيت ما كتبه هذا الناقد أشد تهافتا، وأضعف حجة، وأقل خضوعا لقوانين العقل والمنطق، وذلك وان كان يعمها جميعا ولكن بعض الشر أهون من بعض - وهذا لان الاولين أعمق علما، ولانهم يستحيون بعض الحياء من مثل هذا التورط الشائن، وأما هذا الناقد فهو لا يبالي بيومه، لانه يرى أن أمته أجهل من أن تنقد رأيا علميا، وأن سامعيه همج رعاع أتباع كل ناعق، ولا يبالى بغده، ولا بحكم الاجيال بعده، لانه انما يعيش ليومه، فاذا نفق فيه عند بعض مستمعيه فلا يبالي بعد أن تسقطه الاجيال، أو تخطفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق

يا قوم اعذرونا اذا رأيتمونا نحقر هـذا الناقد وأمثاله

فنحن نعلم من خفاياهم ومن جهلهم ما قد أظهرناكم على بعض
منه، فهم جهلاء، وقد ألمسناكم جهلهم، وهذا نموذج لما وراءه،
وليسوا جهلاء فحسب، لأنهم يخدعون العامة ويدّعون اكثر
مما عندهم، فهم جهلاء وأدعياء، وليسوا كذلك فحسب، لأنهم
يفسدون على الامة أعز شيء لديها: دينها، وأخلاقها، وهي
بدونهما كومة من أنقاض، لا رابطة تربطها، ولا جامعة تجمعها،
فهم جهلاء، وأدعياء، ومفسدون، وليسوا كذلك فحسب
لانهم عن علم يفسدون، فهم جهلاء وأدعياء ومفسدون، وسيئو
النية فيما يفسدون. ومعذور من يقف بين القبور فيرى الرمم
البالية، والدود والصديد، ويظهر منه التقزز والاشمئزاز

تفنيد الطعن الثالث

يقول هذا الطعان :

ان القسم المكي يمتاز بتقطع الفكرة ، واقتضاب المعاني ، وقصر الآيات ، والخلو التام من التشريع والقوانين ، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم . أما القسم المدني فأفكاره منسجمة متسلسلة ، ترمي أحيانا الى غايات اجتماعية وأخلاقية ، وفيه هدوء ومنطق وتشريع وقصص وتاريخ ، وفيه التشريعات الاسلامية ، كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع والمعاملات . هكذا يقول الناقد

﴿ تنزيه القسم المكي عن تقطع الفكرة ، واقتضاب المعاني ﴾

إن الذي يقرأ القرآن ولا يتدبره ، ولا يكلف نفسه الصبر لمعرفة أغراضه ، هو الذي لا يستبين كثيراً منها ، فيبدو له متقطع الفكرة ، مقتضب المعاني ، ولكن الذي يتدبره وينعم النظر فيه ، ويقرؤه على سبيل الاعتبار ، ويكون مع ذلك

قد أوتي طبعا سليما ، ودربة على معرفة منطق العرب الذين يكتفون باللمحة والوحي السريع ، يدرك كثيراً من أغراضه ويبدو له قصده ، فيرى الآيات الكثيرة في غرض واحد كالحلقة المفرغة مرتبطة بعضها ببعض أتم ارتباط ، حتى إن السورة الواحدة المكية الطويلة قد تكون في غرض واحد يشملها ويعمها ، وسأضرب لذلك مثلا

هذه سورة الانعام المكية ، مقدارها ١٦٥ آية ، قد انتظمها غرض واحد وهو ابطال الشرك(١) فتقرؤها جميعها فتجدها في هذا الغرض ، وما سيق فيها فهو لهذه الغاية ، ولولا ضيق المقام لاستوعبتها جميعها ، وبينت كيف تتجه الى هذا الغرض ، ولكننا نشير هنا اشارة موجزة

بدأ الله تعالى هذه السورة بحمد نفسه أو استحقاقه الحمد ،

---

١ ﴾ أي أن موضوعها الاهم المقصود بالذات إبطال الشرك بدحض أوهامه وخرافاته واثبات التوحيد ، ويليه إثبات الرسالة ودحض شبهاتهم عليها ، مع إلمام باثبات البعث أيضا ، فجملة السورة في أصول العقائد الثلاث ، والوصايا التي في آخرها هي الحجة الادبية على حقيتها .

وأنه خلق السموات والارض، وجعل الظلمات والنور، وأنه بعد أن أنعم بهذه النعم يعدل به الذين كفروا الاوثان والانداد.

وكل ما ذكر بعد يتجه نحو هذه الغاية ـ ابطال الشرك ـ فتجده يقول بعد ١٢ آية (وله ماسكن في الليل والنهار وهو السميع العليم * قل أغيرَ الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض وهو يُطعِمُ ولا يُطعَمُ؟ قل اني أُمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين) ويقول بعد (أئنكم لتشهدون ان مع الله آلهة أخرى؟ قل لا أشهد، قل انما هو إله واحد واني بريء مما تشركون) ويقول بعد ٣٩ آية (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل اياه تدعون فيكشف ماتدعون اليه ان شاء وتنسون ماتشركون)

ويقول بعد ٦٢ آية (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون)

ويقول بعد ٧٠ آية (قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونُرَد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله؟ كالذي استهوته

الشياطين في الارض حيران له اصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا. قل ان هدى الله هو الهدى وأُمرنا لنسلم لرب العالمين)

وما ذكر قصة ابراهيم مع أبيه آزر الا لان فيها أدلة على ابطال الشرك (واذقال ابراهيم لابيه آزرأتتخذأصناما آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين * وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين * فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم اني بريء مما تشركون * اني وجّهتُ وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين * وحاجّه قومه قال اتحاجونّي في الله وقد هدان ولا أخاف ماتشركون به الا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون؟* وكيف أخاف ماأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم يُنزّلْ به عليكم سلطانا ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم

تعلمون ؟ * الذين آمنوا ولم يلبِسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون * وتلك حجتنا اتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجاتٍ مَنْ نشاء ان ربك حكيم عليم)

ويقول بعد ٩٣ آية (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون)

ويقول بعد ٩٩ آية (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون)

وحرم في هذه السورة ما لم يذكر اسم الله عليه لانه مما كان يذكر عليه اسماء آلهتهم فهو شرك ، وذكر من عادتهم في الحرث والانعام أنهم كانوا يجعلون بعضها لآلهتهم وهو شرك فأبطلها ، واستدل على بطلانها (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا. فما كان لشركائهم فلا يصل الي الله ، وما كان لله فهو يصل الى

شركائهم ساء ما يحكمون * وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليُرْدوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولوشاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون)

ويقول بعد ١٤٧ (سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا .) (١)

---

(١) بين في هذه الآية بطلان احتجاجهم على شركهم وتحريم ما حرموا من الحرث والانعام بمشيئة الله تعالى كما يحتج الى الآن بعض المبتدعة والمتصوفة . قالوا : لو شاء الله ألا نشرك لما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولو شاء ألا نحرم ماذكر لما حرمنا. فنحن انما أشركنا وحرمنا بمشيئته. ومشيئته تستلزم رضاه . أوأنه هو الشارع لذلك . وقد رد الله تعالى عليهم جهلهم هذا بحجة تاريخية وحجة عقلية: أما الاولى فقوله (كذلك كذب الذين من قبلهم) من أقوام الانبياء رسلهم فيما بلغوهم عن الله تعالى من توحيد الالوهية وهو أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وتوحيد الربوبية وهو أن الشارع للدين هو رب العالمين فلا يحرم عليهم إلاربهم، فليس لاحد أن يقول عليه أنه حرم شيئا بغير علم من وحيه كما قال في أصول المحرمات من سورة الاعراف المكية (وان تشركوا بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) أي كذب الذين من قبلهم رسلهم =

ويقول بعد ١٥٠ آية (قل تعالوا أتلُ ماحرم ربكم عليكم

= كما يكذبك هؤلاء يا محمد (حتى ذاقوا بأسنا) أي عذابنا ، فلو كان راضيا عن عملهم لما عذبهم

وأما الحجة العقلية فقوله لرسوله (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) إثباتا لزعمكم هذا فان القول في صفات الله وأفعاله وأصول دينه وتشريعه لا يصح إلا بعلم يقيني يثبته وما عندكم شيء من علم بهذا (إن تتبعون إلا الظن) أي ما تتبعون فيه إلا الظن في فهم المشيئة واستلزامها للرضا وأمر التشريع . وقد حكى عنهم ذلك في سورة الاعراف بقوله (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون) ثم أسقطهم من مرتبة الظن إلى مادونها فقال (وإن أنتم إلا تخرصون) الخرص الحزر والتخمين كتقدير الثمر في شجره وما يبلغه بعد الجفاف فهو لا يستند إلى دليل وأطلق على الكذب لانه لا يكاد يكون مطابقا للواقع . ثم قال لرسوله ملقنا له حجته البالغة بعد ابطال حجتهم الداحضة (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) اي لو شاء أن يهديكم كلكم بمحض قدرته من غير أن يكون لكم ارادة ولا كسب ولا اختيار في ايمان ولا عمل لهداكم بخلقه اياكم مهتدين بالفطرة ويراجع تحقيق هذه المسألة في الجزء الثامن من تفسير المنار

ألا تشركوا به شيئا) ويذكر في مختتم السورة (قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم * دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين * قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين * قل أغيرَ الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)

فأين تقطع الفكرة واقتضاب المعاني ؟ أليست متسلسلة منتظمة آخذاً بعضها بعضد بعض تنتظمها وحدة الغرض ، واتحاد الموضوع ؟ ولكن ذلك يدق الا على ذي الفهم والحجى

وكم من عائب قولا صحيحا ... وآفته من الفهم السقيم

لو أن أصحابنا هؤلاء يسألوننا ماخفي عليهم من علم ، لما بخلنا عليهم به ، ولبذلنا لهم من فضل الله علينا ، ولحميناهم من أن يكونوا ضحكة الضاحكين ، وسخرية الساخرين

﴿ الحكمة في خلو القسم المكي من التشريعات الجزئية وعنايته باثبات العقائد الاصلية . والتشريعات الكلية ﴾

وأما خلو القسم المكي من التشريع التفصيلي ووجوده في المدني فهذا أمر طبيعي، لان الاسلام لم يكن قد تقرر في مكة، وكان المشركون ينازعون في أصله، وهو التوحيد والنبوة والمعاد الخ فحق أن يكون الحجاج في ذلك، وكذلك كان. ولما كان بالمدينة وآمن به المدنيون، وصاروا جماعة يقدرون أن يقيموا أحكامهم كأمة منظمة، أتى بالقوانين والشرائع

وهل كان يريد الناقد أن يفرض على كفار مكة أحكام المواريث (١) والزواج، والطلاق وهم ينازعون في أصل العقيدة وفي انه رسول، ولا يدينون له ؟

---

١) (ان قيل) اننا نوافقكم على ان الكفار لايخاطبون بفروع الشريعة وانما نقول لماذا لم تشرع هذه الاحكام للمؤمنين انفسهم (قلنا) ان بعضها لم يكن موافقا لمصلحة المؤمنين كالمواريث لان اكثر اقاربهم كانوا مشركين واما الاصل العام فيها كلها فهو ان فائدة التشريع رهينة بالقدرة على التنفيذ وانما يكونان بالسلطان والدولة

أفليس الواجب يقضي أن يثبت أصل الايمان أولا ثم يثبت بعد ذلك فروعه وعبارة الناقد تفيد ان القسم المكي خلا خلوا تاما من التشريع - وليس كذلك ، بل هو فيه تشريع ولكنه اجمالى ولم تخل الا من التشريع التفصيلي

﴿ اثبات القصص والتاريخ في القسم المكي ﴾

وأما القصص والتاريخ فليسا خاصين بالقسم المدني كما يرى الناقد، بل هما يوجدان كثيرا جدا في القسم المكي. هذه سورة الاعراف، ويونس، وهود، والكهف، ومريم، وطه ، ويوسف، والشعراء، مكية ، وهي مفعمة بالقصص والتاريخ ، بل اني لازعم أن ما يوجد من ذلك في المكى أكثر منه في المدني وهنا ينبغي أن أنبه القارىء ان الله ذكر ذلك للعظة والاعتبار

أقسام القرآن

وقد عاب الناقد القسم المكي بأنه يقسم بالشمس، والقمر، والنجوم، والفجر، والضحى، والعصر، والليل، والنهار، والتين، والزيتون، وزعم ان هذا جدير بالبيئات الجاهلة الساذجة التي تشبه بيئة مكة تأخرا وانحطاطا (١)

وليس الامر كما زعم فان الله أقسم بهذه الاشياء ليبين لهم مكانتها وعظم نفعها، ونعمة الله عليهم فيها، فهي جليلة النفع عظيمة الخطر، حتى استحقت أن يقسم الله بها، ولعل الناقد قد توهم ذلك من القسم بالتين والزيتون، فالتبس الامر عليه

---

(١) القسم ضرب من ضروب التأكيد في الكلام، وللتأكيد في الكلام صيغ وعبارات ودرجات هي من أدق أساليب البلاغة. وقد كانت بيئة مكة أرقى في البلاغة والفهم من بيئة المدينة وغيرها. وأقسام القرآن مما امتاز به على سائر الكلام العربي بما فيها من التناسب والملاءمة للمقسم عليه المقصود بالتأكيد سواء أكان يقدر فيها مضاف محذوف هو لفظ (رب) كما يقول بعض المفسرين ام لا. حتى انها افردت بالتأليف

ولبس على الناس، وأوهمهم ان هذا قسم بالمطعوم والمأكول وذلك شأن البيئات الجاهلة الساذجة

ونحن نرى ان هذا قسم بمنابت التين والزيتون وهي بعض بقاع الشام ، فمنبت التين والزيتون مهاجر ابراهيم ، ومولد عيسى ومنشؤه، فالكلام على حذف مضاف،أي ومنبت التين والزيتون ، وانما قلنا ذلك ليتناسب مع ما بعده وهو طور سينين ، وهذا البلد الامين ، لان المراد بهما أيضا بقاع، فالطور هو المكان الذي نودي منه موسى ، والبلد الامين مكة وهي مكان البيت الذي هو هدى للعالمين ، ومولد نبينا ومبعثه .

وانما أقسم الله بهذه الاشياء ليبين من شرف هذه البقاع المباركه ، التي انبثق منها نور النبوة والهدى على العالمين . وان لهذه الاماكن في نفوس المؤمنين والمتدينين من يهود ونصارى منزلة لا تشابهها منزلة ، وان ذكرها ليفعل في نفوسهم ما يفعله ذكر الاوطان ، وملاعب الصبا ، ومعاهد الطفولة

تفنيد الطعن الرابع

﴿ هل تعلم القرآن من اليهود ؟ ﴾

ان الذي دعا الناقد إلى هـذا التورط والاسفاف حبه لاثبات النتيجة الآتية : (ان محمدا تعلم من اليهود بالمدينة الحجة والمناقشة ، وان القرآن من وضع محمد) وكيف يثبت له ذلك اذا كان القرآن منطقيا بمكة كما هو بالمدينة، واذا كان مقيما للبرهان على الخصوم في البلدين ، واذا كان أمره في الادب ، والعلم ، والانسجام ، والقصد الى غايات سامية ، وشريفة ، سواء بمكة وبالمدينة ، فسلك تلك الطريق العوجاء الملتوية،وزعم ان القرآن بمكة كان يهرب من المناقشة،وكان خاليامن المنطق الخ ماقال. أما بالمدينة فقد كان على الضد من ذلك. وهذامن أثر تثقيف اليهود الذي ثقفوا به المهاجرين أي ومنهم محمد ، ولكنه لن يصل الى ذلك ما دامت يدنا تحمل القلم، وما دام في الناس عقول،

لقد بنى الدكتور هذه النتيجة على تلك المقدمات التي حاول فيها اثبات أن القرآن قسمان قسم منه ضعيف وهو المكي، وقسم منه قوي وهو المدني، وأن ذلك لا بد من تأثير البيئة اليهودية الراقية فيه ، وقد أفسدنا هذه المقدمات ، وأثبتنا أن القرآن في القسم المكي منه قوي قوته في المدني ، وانه يصدر في كل ما يصدر عن علم واسع، وقدرة عظيمة ، وهو في أوله وآخره سواء سموا وعظمة وارتفاعا، لم يكن يوما ضعيفا ولا خاليا من المنطق ، ولا هاربا من حجة ، ولا فارا من مناقشة ، وقد كان هذا كافيا في غرضنا لانه هدم للاساس فينهدم ما شيد عليه

ولكننا أردنا أن نأتي بدراسة موجزة للقرآن مع اليهود لنعلم أكان القرآن يحترمهم؟ ويراهم مثلا أعلا في العلم والمنطق والدين والاخلاق حتى يقتبس منهم ويقلدهم ويعجب بثقافتهم؟ أم هو يراهم « وخاصة اليهود الذين كانوا يجاورونه » مثلا أدنى ، من أسوأ الامثال في العلم والخلق والدين، وينظر اليهم كما ينظر المعلم الى تلاميذه، الذين هم بحاجة الى أن يتثقفوا منه؟

إننا ان درسنا القرآن وجدناه ينظر اليهم النظرة الثانية، فليس يعجبه منهم خلق، ولا علم، ولا دين،

﴿ عيب القرآن اليهود بتحريف شريعتهم وكتمان العلم ﴾

كان يرى أنهم انغمسوا في حمأة المادية، وتمردوا على الروحية السامية، وفقد الحق سلطانه على نفوسهم فبدلوه، ولم تكن وجهتهم الخير والاصلاح، وانما كانت وجهتهم متاع الحياة الدنيا وزينتها، فباعوا في سبيل ذلك دينهم، والحق الذي معهم (ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله، ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم)

(أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون)

(يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون

الكلم من بعد مواضعه يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه وان لم
تؤتوه فاحذروا، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا،
أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، لهم في الدنيا خزي
ولهم في الاخرة عذاب عظيم * سماعون للكذب ، أكالون
للسحت ، فان جاءوك فاحكم بينهم، أو أعرض عنهم ، وان
تعرض عنهم لن يضروك شيئا ، وان حكمت فاحكم بينهم
بالقسط ، ان الله يحب المقسطين)

﴿عيب القرآن اليهود. بفقد الامانة. واستحلال الخيانة والكذب على الله﴾

كان يعيبهم انهم فقدوا الامانة ، وزعموا أن الله أحل
لهم خيانة الاميين — كذبوا فليس الله يحل الفحشاء والمنكر ،
(ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم
من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك
بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل ، ويقولون على الله
الكذب وهم يعلمون * بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله
يحب المتقين)

﴿ عيبه اياهم برذيلة الحسد ﴾

كان يعيبهم بخلق الحسد الذي هو أس الرذائل، وجماع القبائح ، والذي حملهم على أن يقولوا لعابدي الوثن أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلا، والتوحيد دينهم (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا)

﴿ عيبه اياهم بالاشراك ﴾

عابهم أنهم غيروا دينهم فبعد أن كان دين توحيد أشركوا معه بعض المحدثات (وقالت اليهود عزير ابن الله) وبعد أن كان دينا يحث على الفضيلة ، وينفر من الرذيلة ، ويعلم أنه لن تنفع الاحساب والانساب ، وانما تنفع الاعمال ، وانه من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه استحال في أيديهم دينا يغري

بالاتكال على الانساب والاحساب ، واذا وصل الدين الى هذه المنزلة فسد ، ولم يؤد مهمته السامية من الحض على الفضائل ، والتخويف من الرذائل ، بل ربما شجع على الرذيلة اتكالا على الحسب والنسب

(وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ، قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ، أم تقولون على الله مالا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

﴿ عيبه اياهم بترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴾
(وخلال أخرى سيئة)

وعابهم بأنهم تركوا التناهي عن المنكر ، والتآمر بالمعروف

وعابهم بأنهم كانوا يأكلون السحت ، ويقولون الاثم

وعابهم بأنهم لم يعرفوا جلال الله وكماله ، ولم ينزهوه عن النقص والعيوب (وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء)

﴿ لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون ﴾

(وترى كثيرا منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون * لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون)

وعابهم بأنهم قد أوتوا علما لم يعملوه ولم ينتفعوا به (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظالمين)

موقف القرآن من اليهود

﴿ موقف المعلم لا المتعلم ﴾

وهذا كله موقف من جاء ليعلم لا ليتعلم ، ومن جاء يثقف لا ليتثقف ، ولذلك كان يرى أنه حاكم ومهيمن على الكتب السالفة (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) فليس القرآن من عمل محمد ، وليس لليهود فيه نصيب وانما هو من المشكاة التي جاءت منها التوراة والانجيل ، فلما طال عليهما الامد ، ونسيت تعاليمهما ، واستحالت الى غير ما كانت عليه ، جاء بالقرآن ليردهم الى الفهم الاول ، ويجدد لهم ما كان قد درس من تعاليم صحيح ، ويصل بهم الى الغاية التي هي كمال النوع الانساني .

تفنيد الطعن الخامس

الحروف غير المفهومة المفتتح بها بعض السور من القرآن والحكمة فيها

ادعى الناقد أخيرا ان الحروف المفتتح بها بعض السور ربما قصد بها التعمية أو التهويل . أو اظهار القرآن في مظهر عميق مخيف ، أو هي رموز وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنا ، وهي دعوى قد كفانا هو إبطالها، لانه يشك فيها ويردد بين أمرين متناقضين ثبوت أحدهما ينفي الآخر. فكونها قصد بها التهويل واظهار القرآن في مظهر عميق مخيف يقتضي انه نطق بها الرسول وأنها كانت في عهده، وكونها رموزا وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة ، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن يقضي بانه لم ينطق بها الرسول ولا كانت في زمنه ، ونقض القرآن لا يكون بهذا الشك والاضطراب والترديد بين أمور متناقضة . ولو علم الناقد ان الصحابة والتابعين كانوا يتشددون في تجريد المصحف

من كل ماليس قرآ نا حتى إنهـم امتنعوا من العجم والشكل وكتابة أسماء السور لاستحيا من أن يقول مثل هذا القول (١)

١) الصواب انه علم ولم يستح ، وممن يستحي ؟ وهل يتكلم في مثل هذا المشكل من غير ان يراجع بعض التفاسير ؟ كلا انه قد اتبع في هذا بعض المستشرقين كعادته ، لانهم أرقى في نظره المظلم من علماء المسلمين ، بل ممن هو اعظم من الجميع . ولكنه كان سيىء الاتباع ، فان جرجيس سايل المستشرق الانكليزي عرض لهذه المسألة في مقاله عن الاسلام وذكر بعض أقوال المفسرين فيها ثم قال : وعندي ان لما فسرها به احد علماء النصارى وجها لعله أدنى الى الاصابة من تفسيرهم فقد حدس أنها أحرف وضعها كتّاب محمد رأس السورة اختصارا من قولهم أوعز الي محمد . وذلك على حد ما وضعه بعض كتابه من اليهود « كهيعص » برأس سورة مريم اختصاراً من قوله بالعبرانية « يهْ يَعَصْ » أى هكذا أمراه

وقد وضع مترجم الكتاب بالعربية حاشية لهذه الفرية المخروصة خلاصتها أن هؤلاء الكتاب للقرآن من غير المسلمين وضعوا هذه الاحرف لتبرئة أنفسهم من الايمان بما كتبوه بأمر مستأجرهم للكتابة

وأما طه حسين فقد نقحها بما ظن أن تكون مستساغة عند تلاميذه وأمثالهم الذين لا يصدقون أن كتاب الوحي عند النبي (ص) كانوا من اليهود حتى في مكة فجعلها لكتاب المصاحف من الصحابة (رض) جاهلا أن هذه الاحرف كانت مقروءة ومحفوظة ومكتوبة في سورها قبل كتابة المصاحف المتعددة في خلافة عثمان ، وأن السور المكية منها كسورتي الروم ومريم نزلت في أوائل البعثة قبل أن يكون في الصحابة ابن عباس وابن عمر

ولعمري « اذا كان شاكا ومضطربا » فلم لا يأتي الا بما هو طعن في القرآن؟ ولِمَ لَمْ يذكر ولو على سبيل الشك والترديد، ما قاله المفسرون من أنها أسماء للسور، أوجيء بها هكذا مسرودة ليعلمهم أن القرآن منظوم من هذه الحروف التي ينظمون منها كلامهم ، فهو اذا من جنس ما ينطقون ، فليأتوا بمثله إن كانوا صادقين. ذلك لان مواده ليست أعجمية، بل هى من المواد التي ينظمون منها كلامهم ، وليست غريبة عنهم ، فاذا عجزوا بعد فليعلموا انه ليس من كلام البشر، بل هو من عند خالق القوى والقدر

وأنى لهذا الناقد أن يقول خيرا في الكتاب الكريم ولو على سبيل الشك وهو يريد نقضه وإبطاله ؟

مثل الناقد وما يحاول من نقض القرآن كمثل فرعون اذ قال (فأوقد لي ياهامان على الطين، فاجعل لي صرحا لعلي أطلع الى اله موسى، واني لاظنه من الكاذبين) ولم يدر أن

دون ذلك بعدما بين الفناء والبقاء ، والمحدود وغير المحدود ،
وتلك الهوة السحيقة ، التي فصلت بين ضعف الانسانية وجبروت
الربوبية ، وأخيرا دون ذلك سر الألوهية ، وعمق الابدية

لست أحمل من الموجدة لرجال التبشير ما أحمله لهذا
الناقد ، لانهم يبدون (كما هم) بلباسهم الكهنوتي ، ويظهرون
آراءهم على انها آراء تبشيرية . أما هو فيخفي الالحاد ويظهر
بلباس العالم ، ويعرض أفكاره الالحادية في ثوب العلم ويظهرها
كأنها آراء أنضجها البحث والتفكير ، وهي ليست من العلم في
قليل ولا كثير ، وانما هي آراء تبشيرية لا أقل ولا أكثر ،
واذ انهم لا يجرءون على دخول مدارس الدولة ، ولا الجامعة
المصرية ، وهو يتربع على كرسي المعلم في الجامعة ، فلا يقدرون
على بث سمومهم وهو يقدر على بث سمومه ، وهم يخدمون
دينهم بمهنتهم التبشيرية ، أما هو فيضر دينه ، وهم يخدمون
أمتهم بعملهم ، وهو يضر أمته بتمزيق رابطتها الدينية ، وهي

الرابطة التي كونتهم أمة وجعلتهم يتوادون ، ويتحابون ، ويرمون عن قوس واحدة، وهم يخدمون أوطانهم، وهو يضر وطنه بتفكيك روابطه ، وتمزيق وحدته، فهو يخادع وهم لايخادعون ، وهو يخون أمته وهم لاممهم لايخونون ، وهم أوفياء لدينهم وهو عاق لدينه أثيم

لست أخجل من شيء خجلي من الاقطار العربية ومن الاجيال المقبلة إذ يقولون كيف يدرس هذا الهذر ، وهذا الهذيان في مصر، في الجامعة المصرية في القرن العشرين ؟ أكانت بهذه المنزلة من الجهل ؟ أكانت بهذه الحال من الانحطاط والغباء ؟ أفلم يكن فيها علماء يبينون لأمتهم مافي هذا من جهل؟ أفلم يكن فيهم من يقفون الناس على بعد ما بين هذا والمنطق؟ أفلم يكن فيهم قادة ومرشدون يحمون الامة من هذه الغواية، وهذا الحمق ، وهذا القموق ؟

الآن اشهدي أيتها الاقطار العربيـة ، اشهدي أيتها الاجيال المقبلة ، اشهدي أيتها الارض ، اشهدي أيتها السماء أن مصر لم تؤمن بهذه الشعوذة قط ، وانها لم تجز عليها هذه الحماقات ،وانها أعقل من أن تخدع ، وأعلم من أن تدخل عليها هذه الشعوذة وتلك الاغاليط ، وأنها دفعت في صدور هذه الشبه ، وبينت للناس بطلانها وما فيها من ضلال مبين

علاوة

ضراوة الناقد بالطعن في القرآن

ليست هذه أول مرة يطعن فيها هذا الناقد في القرآن الكريم ، فقد طعن فيه من قبل في كتاب أسماه (في الشعر الجاهلي) كذب فيه القرآن في قصة إبراهيم وإسماعيل ، وزعم أنها خرافة اخترعها اليهود لغرض سياسي ، واستغلها القرآن لغرض سياسي ، وزعم أن الدليل هو الذي اضطره إلى هذا . وقد كنا كتبنا كلمة بينا فيها خطأه في نظره وفي استنتاجه ، وكتبنا كلمة أخرى بينا فيها أن هذا الناقد قد سرق طعنه في القرآن من كتاب (ذيل مقالة في الاسلام) لاحد المبشرين (١) ونحن نثبتهما هنا ليعلم الناس أن القرآن بريء مما يقوله المبشرون وهذا المشايع لهم

---

(١) بل أخذ من الاصل وهو للمستشرق الانكليزي (سايل) مترجم القرآن ومن ذيله لكاتب شرقي مستأجر

﴿ منهج الدكتور طه حسين العلمي في البحث ﴾ (١)

أظن أن الصحف لا تأبى عليَّ نشر هذا النقد للشعر الجاهلي للدكتور طه حسين، وأن ليس لأحد سبيل عليها إذا نشرته، لأنه لا يتعلق بدينه، ولا بإثبات كفره بما كتبه في الشعر الجاهلي، ولا بإثبات أنه طعن في الدين الاسلامي الذي تقام شعائره في مصر فيكون مستحقا للعقوبة المنصوص عليها في القانون المصري، وإنما هو مناقشة هادئة علمية محضة في المنهج الذي اصطنعه الدكتور في البحث في الشعر الجاهلي، يتبين منها أهذا المنهج الذي سلكه في البحث علمي منطقي يرضى عنه العلم أم هو منهج خاطيء لا يحترمه العلم ويحتقره المنطق ويرى أنه من المغالطات ؟؟

إننا سنحاول ذلك، وستكون النتيجة كما سيراها القاريء أن منهج الدكتور في البحث من ضلالات العقول ومغالطات

---

(١) نشرت فى الجزء العاشر من المجلد السابع والعشرين من مجلة المنار سنة ١٣٤٥هـ ١٩٢٧م

الوهم، وأنه ليس يسلك هذا المنهج إلا الذين لم يمارسوا صناعة المنطق، ولم يمرنوا على صناعة البرهان ، وكانوا سطحيين في بحوثهم لم يتعمقوا إلى الغور ، ولم يبعدوا المرمى ، وغرضنا من ذلك أمور ثلاثة

(أولها) أن تسقط دعوى الدكتور طه حسين بأن ما سلكه في البحث منهج علمي حديث وأنه بذلك يحشر نفسه في زمرة العلماء حشراً في عداد المخترعين والمبتكرين والمستكشفين ، وليس يعلم إلا الله ما ينال هؤلاء العلماء من الاذى في مضاجعهم بانتساب الدكتور اليهم وحشره نفسه قسراً في زمرتهم

(ثانيها) أن أحمي شباب مصر من عدوى ذلك المنهج، ومن أن يتأثروا الدكتور فى طرائقه الفكرية ، فان مستوى البحث في مصر لما ينضج بعد ، وذيوع أمثال طرائق الدكتور عما يكون ضغثا على إبالة

(ثالثها) أن يعلم الذين يدينون بالاسلام في مصر أن

دينهم لم يصادمه علم ولا عقل كما يدعي الدكتور ويفتري ،
وحاشا الاسلام أن يصادمه علم أو عقل وأنه اذا كان ثم ما يصادمه
فليس العلم والعقل ، وإنما هو الجهل المخزي ، والباطل الشائن ،
والعقل الفج الذي لم يستكمل بعد شرائط الانتاج !!!

سيسوء ذلك الدكتور طه حسين ولا يرضيه ، ولكنني لست
أتوخى رضاه ولا أتحرز من مساءته ، وإنما أتوخى رضى الحق
وأتجنب مساءة الصواب ، فأما من عداهما فلا علي أن يكونوا
غاضبين ، وليس يدخل في غرضي أن يقتنع الدكتور طه حسين
فانه ليس ممن يرجى منهم اقتناع ، فانه ليس طالب حق ، وإنما هو
طالب رواج ، وليس ممن يعنيهم الصواب ، وانما ممن يعنيهم
الربح ، فهو كالتاجر همه أن تروج بضاعته لا أن تنقد فيعلم
جيدها من رديئها ، وكما أن التاجر اذا بصرته عيب بضاعته
ناكرك وجاحدك ، كذلك الدكتور اذا ألمستة عيب ما يقول
بيده جحد واستكبر ، لان ذلك يقف دون رواجه وربحه —
وإياهما يريد

ان الذي أفسد على الدكتور أمره اعتقاده أن أمته أمية. فهو يلقي اليها مباحثه على عواهنها لا يعنى بتمحيصها ونفي الزائف عنها ، عالما بأنه ليس عندها من ملكة النقد ما يبين عيبه ويظهر شينه ، وقد مد له في هذا الاعتقاد أنه يرى المعجبين برأيه والمقرظين لعلمه مهما كان فيه من الباطل والخطأ.

ألا فليعلم الدكتور بعد أنه ليس ينشر بحوثه في أمة وحشية متبدية كقبائل الزنوج ، وانما هو ينشرها في أمة متحضرة متمدينة ضربت في العلم بسهم وأخذت منه حظا ، وأن بني قومه فيهم من ينقدون الآراء، ويعلمون حقها من باطلها، ويعلمون المغالطات مهما بولغ في تزيينها ، وأنهم لم تستعص عليهم نحل الفلاسفة ومعتقداتهم في الالهيات والاخلاق والسياسة والاجتماع فنقدوها ، وعلموا زائفها من خالصها ، فكيف تستعصي عليهم آراء سطحية تتعلق بتاريخ أو شعر ؟ وانهم ان كانوا قليلا ففى استطاعة هؤلاء القليل أن يبينوا لجمهرة الامة عثرات الرأي وكبوات الافهام

جاء شقيق عارضاً رمحه　　　إن بني عمك فيهم رماح

نفى الدكتور طه حسين في الفصل الذي عنوانه (الشعر الجاهلي واللغة) وجود إبراهيم وإسماعيل، وبناءهما الكعبة، وهجرتهما الى مكة، وتعلم اسماعيل العربية من العرب العاربة الذين هم من قحطان، وإن كان قد ورد ذكرهما فى التوراة والقرآن، نفى ذلك الدكتور، وليس له اختيار في هذا النفي لانه مضطر أمام الدليل القطعي، والدليل الذي اضطره إلى ذلك هو أنه قد ثبت أن لغة قحطان أي لغة جنوب جزيرة العرب تخالف اللغة العربية التي يتكلم بها أهل الحجاز، فنسبتها الى اللغة العربية كالنسبة بين اللغة العربية وبين أي لغة سامية، فاذا كانت هـذه القصة صحيحة وكان إسماعيل وبنوه قد تعلموا العربيه من القحطانية، فكيف بعد ما بين اللغة العربية العدنانية واللغة القحطانية ؟؟

نحن إذن بين أمرين، إما أن نقبل هذه القصة ونرفض ذلك الدليل القطعي أو العكس، ولا مندوحة تجوز رفض

الدليل القطعي ، فلا بد من رفض هذه القصة وإنكارها والاذعان للدليل القطعي : ننكرها بجملتها فلم يوجد ابراهيم واسماعيل فضلا عن بنائهما الكعبة ، وهجرتهما الى مكة، وتعلم اسماعيل العربية من القحطانية، نحن مضطرون الى ذلك وأن حدثنا القرآن والتوراة عنهما، فان ورود هذين الاسمين فيهما لا يكفى لوجودهما التاريخي .

هذا دليل الدكتور، وسنبدأ في مناقشته قبل الدخول في تفصيلات المناقشة، نذكر مقدمة ينبغي أن تعلم : وهي أن القرآن لم يعرض لحديث تعلم إسماعيل العربية من قحطان ، وانما الذي عرض له وجودهما وهجرتهما وبناؤهما الكعبة ، وانما الذي عرض لتعليم اسماعيل العربية من القحطانية هم مؤرخو اللغة . وبعد فسنسلم للدكتور جدلا كل ماقاله من البعد بين القحطانية والعدنانية بعداً يجعلهما لغتين مستقلتين ، ومن أنه لو تعلم اسماعيل من القحطانية لكانت اللغتان متفقتين أو متقاربتين

ولكننا نقول له إن دليلك لا ينفي الا إن اسماعيل تعلم اللغة العربية من القحطانيين، فاما وجودهما، وهجرتهما الى مكة، وبناؤهما الكعبة، وهى الأمور التى عرض لها القرآن فلا ينفيها ولا يتعرض لها، فمما يتفق مع دليلك أن يكون ابراهيم وإسماعيل قد وجدا وهاجرا الى مكة، وبنيا الكعبة، وتعلم إسماعيل وأبناؤه العربية من غير القحطانيين من العرب الذين خلقهم الله يتكلمون العربية الحجازية التي بقيت إلى مجيء الاسلام، فالدليل القطعي لا ينفي الا شيئا واحدا وهو تعلم إسماعيل وبنيه العربية من القحطانية فمن الواجب أن يقتصر به على ذلك، ولا يعدى الى القصة جميعها فينفيها اذ لا منافاة بينه وبين بقيتها، ومثل الدكتور في ذلك مثل من يسمع مؤرخين أحدهما يقول ان اللورد كتشنر كان عميد الدولة البريطانية في مصر والآخر يقول انه كان عميدها في مصر سنة ١٩٢٠ فيقول: ان التاريخ يفيد أن اللورد كتشنر غرق زمن الحرب العظمى التى انتهت قبل هذا التاريخ فما قاله المؤرخان كذب

ولم يكن اللورد كتشنر عميداً لانكلترا في مصر وقتا ما، كذب المؤرخين، وكذب القصة جميعها، ولو اتبع المنطق لنفى كونه عميداً في زمن سنة ١٩٢٠، ولم يعد النفي الى كونه عميداً، ولم يكذب المؤرخ الأول، اذ لم يتعرض لتعيين الزمن. وكذلك الامر عندنا: الدليل ينفي ماقاله المؤرخون من أن إسماعيل تعلم العربية من القحطانية، فينفي به الدكتور القصة حتى ماذكره القرآن من وجودهما وهجرتهما وبنائهما الكعبة مما لم ينفه الدليل ولم يتعرض له، ويكذب القرآن فيما قاله وهو لم يعرض لما نفاه الدليل وإنما عرض لغيره.

فيادكتور دليلك أقصر من دعواك: أنت تدعي نفي وجود إبراهيم وإسماعيل، وهجرتهما الى مكة، وبنائهما الكعبة، وتعلم اسماعيل العربيـة من القحطانيـة، ودليلك انما ينفي الأخير وهو تعلم اسماعيل العربية من القحطانية، فاماماعدا ذلك فلا، ويسمي علماء المناظرة ذلك بمنع التقريب، والتقريب سوق الدليل على وجه يستلزم المطلوب، ويقولون في مثل

ذلك: أن التقريب غير مسلم، أي أنك سقت الدليل على وجه لا يستلزم المطلوب، فمثلك مثل من ادعى أن هـذا الشبح إنسان، ويستدل على هذه الدعوي بأنه متحرك بالارادة، وكل متحرك بالارادة حيوان. نعم الدليل مسلم ولـكنه لا يستلزم المطلوب وهو أنه انسان

فالمنطق يأمرنا إذا نفى الدليل شيئا أن نقصره على ذلك الشيء، ولا نعديه الى ما عداه، وقد رأيت في مثال اللورد كتشنر كيف نخطيء اذا عدينا النفي الى غير ما قام عليه الدليل — ولو أردنا أن نصوغ دليلك في قالب منطقي لـكان هـكذا: لو كانت الحجازية أصلها القحطانية لما بعد ما بينهما هذا البعد، لـكنهما متباعدان، اذن فليست الحجازية أصلها القحطانية، هذه النتيجة فقط. ولـكنك تزيد فيها مايأتي: لم يوجد ابراهيم واسماعيل ولم يبنيا الكعبة ولم يهاجرا الى مكة. وهذا هوس ليس منطقا، ويظهر أن الدكتور طه

علم أن دليله لا ينتج تكذيب القرآن فيما ذكره ، فلم يرتب التكذيب على الدليل ، ولم يقل (واذن) التي يستعملها دائما في كلامه وقال : فواضح جداً لكل من له إلمام بالبحث التاريخي عامة وبدرس الاساطير والاقاصيص خاصة أن هذه النظرية متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت اليها حاجة دينية ، أو اقتصاديه ، أو سياسية . وهو بين شرين لامفر منهما اما أن يكون اجترأ على تكذيب القرآن في وجود إبراهيم وإسماعيل بدون دليل ، وليس بيده الا قوله فواضح جداً – وحينئذ تكون دعوى لادليل عليها ، والدعاوي إن لم تقم عليها بينه لم يعبأ بها ، واما أن يكون قد كذب القرآن بذلك الدليل ، وقد علمنا أنه أقصر من دعواه ، ولا ينتج تكذيب القرآن

هذا وقد رأى القراء أننا لم نناقش الدكتور على قاعدة أن القرآن نص يقيني وهو حجة على كل ما خالفه ، وانما ناقشناه على قاعدة أنه نص تاريخي كنص أي مؤرخ من

للبشر تنزيلا منا، وبينا له أن دعواه لم تتم، لان الدليل العقلي الذي استعمله لا ينهض، فلم نلزمه بنصوص الدين لئلا يقال ان ذلك لا يلزمه الا المتدين، وانما ألزمناه بالادلة العقلية المشتركة للانسانية كلها من تدين منهم ومن لم يتدين.

ولا يظن ظان أن أدلة الدكتور الحديثة تقف عند هذا الحد من العبث والبطلان، بل ان لها لونا آخر من ألوان العبث والبطلان وهو ماسنبينه.

يزعم الدكتور طه أن قصة إبراهيم وإسماعيل موضوعة وضعها اليهود لغرض وهو أنهم كانوا يريدون أن يثبتوا القرابة بينهم وبين العرب ليعيشوا معهم عيشة راضية، وقبلتها مكة لغرض سياسي وديني لانهم كانوا يريدون أن يتصل نسبهم بأصل من تلك الاصول الماجدة، وقبلها الاسلام لغرض ديني وهو أنه يريد أن يثبت صلة بينه وبين اليهودية.

هكذا زعم الدكتور، وليس معه نص تاريخي يفيد ذلك، وليس بيده إلا أن ذلك يمكن أن يكون قد كان، واذا تصور

على هذا الحال كان منسجما ، ونحن نقول له يادكتور ان التاريخ لا يثبت بمثل ذلك ، وليس كل ما يمكن أن يكون قد كان، يجب أن يكون قد كان ، ولا يثبت الامر بأن هذه العلة يجوز أن تكون له . وإن مثلك في ذلك مثل مؤرخ يأتي بعد مائتي سنة يقول : يزعم المؤرخون أن أمريكا اشتركت مع فرنسا في حرب ألمانيا في الميدان الغربي ، وهذا باطل فأين أمريكا من فرنسا ؟ إن بينهما المحيط الاطلانطيقي على سعته . القصة مكذوبة وقد اخترعها بعض الامريكان ليقرب الشعبين الامريكي والفرنسي بعضهما من بعض ، ان هذه القصة تفيد أنهما حاربا معا جنبا لجنب عدواً مشتركا فهي تدعو الى تآلف الشعبين فقد وضعت لذلك ، وان الذي يدعو الي أن توضع علوم الاوائل كلها موضع الشك ولا يثبت الا ما قام العلم على اثباته، لا يسوغ له أن يطلب منا الاقتناع بمثل هذه الظنون والاوهام، وليس عنده من الحجة، الا ان ذلك يمكن ان يكون

قد كان، فيجب أن يكون قد كان . اللهم الا اذا كان يدعو
الى رفض تقليد الماضين الى تقليده هو ؛ وان قارئي كتابه
يحتاجون الى مقدار عظيم من البلاهة والغمارة حتى يقتنعوا
بأمثال تلك الحجج التي هي كما قال الاول

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقا وكل كاسر مكسور

اذا أراد الدكتور أن يقنع الامة بكتابه فعليه اولا ان
يبدأ بالغاء عقولها، وعكس منطقها السليم، واحالة تلك العقول
عن فطرتها حتى تكون على غرار عقله ؛ ثم يلقي اليها بعد
أمثال تلك الاوهام، وحينئذ تقنع بها وتصدق ويتم له مايريد
ولكن : دون ذلك وينفق...

ألا لا يقولن الدكتور بعد اليوم : المنهج العلمي الحديث
ولا البرهان العلمي، ولا يتمسحن بأعتاب العلماء، فقد أطلعنا
القراء على قيمة نهجه العلمي الحديث ومنطقه الجديد، فعلموا
أن ذلك ليس منطق العقلاء وانما هو منطق البله والاغمار
والمغرورين .

وبعد : فكتاب الشعر الجاهلي ان كان الفه مؤلفه كتابا

في المغالطات ، وامثلة على القياس الذى لم يستكمل شروط الانتاج، والاضرب العقيمة والحجة الخداج، فهو كتاب جيد في بابه واف الغرض الذي قصد اليه،وان كان ألفه مؤلفه كتابا في تاريخ الشعر والادب فليس من ذلك في قليل ولا كثير

ولو أن في بلدنا مجمعا علميا منظما لحكمته بيني وبين الدكتور ، ولرضيت حكمه فيما رميت به دعاوي الدكتور من أنها دعاوى يقيم عليها ادلة أقصر منها تارة ، ويدعيها بدون برهان تارة ، ويثبت الشيء بأنه ممكن تارة اخرى ، ولكان من وراء ذلك التحكيم الخير العظيم ، فانه اذا حكم علي "تواريت خجلا، وأرحت الناس من سماع هذا النقد وأمثاله . واذا حكم على الدكتور حمى شباب الامة من التورط في آرائه ، وحماها أيضا من عدوي ذلك المنهج الخاطيء في البحث - اما والبلد ليس فيها مثل هذا المجمع فأدعو المشتغلين بالمنطق ان يبدوا آراءهم فيما بيني وبين الدكتور من خلاف ، انهم ان فعلوا ذلك خدموا العلم والحقيقة ، ومن أولى من هؤلاء بخدمة العلم المظلوم والحقيقة المهيضة .؟

طه حسين

﴿ يسرق طعونه في القرآن من كتب المبشرين ﴾

«اني أسفت لنقل الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب إلى وزارة المعارف لان هذا الاستاذ لا يستطاع فيما أعلم أن يعوض الآن على الاقل لا في الدروس التي يلقيها على الطلبة ولا في محاضراته العامة للجمهور، ولا من جهة هذه البيئة العلمية التي خلقها حوله وبث فيها روح البحث الادبي وهدى إلى طرائقه»

هذا ما يقوله أحمد بك لطفى السيد مدير الجامعة في استقالته . وهذا ما يقوله في حديثه مع مندوب الاهرام، وبمثل هذا يلهج بعض الكتاب في هذه الايام، ونحن نرى أن الادعاء بأن الدكتور لا يستطاع أن يعوض مبالغة في ثناء اعتاد الدكتور ومدير الجامعة أن يتقارضاه

وأما دعوى أنه خلق بيئة علمية، بث فيها روح البحث

الادبي، وهدى إلى طرائقه، فنحن لانستطيع أن نسلم بذلك، لأن الدكتور فاقد لروح البحث، ولا يدري ماطرائقه، وفاقد الشيء لايبثه ويهدي إليه، ونجوز أن يوصف الدكتور بكل شيء، إلا البحث ومعرفة طرائقه، وهذه مسألة يخالفنا فيها مدير الجامعة وبعض الكتاب، ونريد أن نقيم الدليل عليها ونقنع بها من يريد الاقتناع.

نريد أن نعرض عليهم نماذج من بحوث الدكتور ونبين لهم من أين أخذها؟ وهل فهم حين أخذها؟ أم أخذها مخطئا فوقع فى التناقض وكان أبعد الناس عن طرائق البحث السديد؟

أكبر كتاب اشتهر به الدكتور كتاب (في الشعر الجاهلي) وأشهر بحث فيه هو انكار وجود ابراهيم واسماعيل، وتكذيب القرآن والتوراة في دعوى وجودهما، وزعمه بأن قصة ابراهيم وإسماعيل وأبوتهما للعرب أسطورة لفقها يهود جزيرة العرب لغرض سياسي، واستغلها القرآن لغرض ديني. بحث جاء به في كتابه، وانتحله لنفسه، أيدري الناس ممن أخذ

هذا البحث ؟ إنه أخذه من كتاب (ذيل مقالة في الاسلام)
لمن سمى نفسه بهاشم العربي، وهذا الكتاب مطبوع قد طبع
للمرة السادسة ، وهو من عمل بعض المبشرين الطاعنين في
الاسلام، ونحن نعلم أن القاريء لا يكفيه أن يقال إنه أخذه
من كذا ، وانتحله من فلان . لذلك نريد أن ننقل له عبارة
الاصل،ورقم الصفحة،وننقل له عبارة الدكتور،فيؤمن معنا
بأنها مسروقة

يقول صاحب ذيل مقالة في الاسلام في صفحة ٣٥٢
من كتاب مقالة في الاسلام المطبوع بمطبعة النيل المسيحية للمرة
السادسة «وحقيقة الامر في قصة أسماعيل أنها دسيسة لفقها قدماء
اليهود، تزلفا إليهم وتذرعا بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس ،
أو الى تأسيس مملكة جديدة لهم في بلاد العرب يلجؤون اليها،
فقالوا لهم : نحن وأنتم أخوة وذرية أب واحد ، وهذا سنن
مألوف لليهود فانهم متى رأوا المصلحة في التودد الى قوم قالوا
لهم : أنتم إخوتنا ، ونحن وأنتم صنوان ، وقد حاولوا مرة

أن يخدعوا اليونان بهذه الحيلة ليتعصبوا لهم فخابوا، ثم استأنفوها
مع العرب لما زحف عليهم تيطس بجيش الروم ليقمع عصيانهم
فتذرعوا اليهم برحم القرابة وقالوا لهم : نحن وأنتم ذرية ابراهيم
وعده الله ولن يخلف وعده ليقيمن من سلالتهم ملكا على
الارض حتى الانقضاء، وطمعوا أن يجروهم بذلك الى قتال
الروم فلم يظفروا بمرادهم ، ثم نكبوا فهاجر كثير منهم الى
جزيرة العرب وتوطد فيها أمرهم كما ذكر المصنف ، ولم يألوا
جهداً إذ ذاك الى ظهور الاسلام في إشراب العرب أن بينهم
وبينهم قرابة من النسب حتى نجحت فيهم هذه الاكذوبة
آخر الامر، لأنهم كانوا أجهل من أن يردوها، ولأن الوثنيين
منهم لما رأوا اليهود والنصارى على ما بينهم من الاختلاف
متفقين على تعظيم ابراهيم لم يشق عليهم أن يكونوا هم أيضاً
فرعا من هذا الاصل ، إذ كان سواء عليهم أن ينتموا الى
هذا الاب القديم أو الى غيره ، أو لعلهم كانوا قبل ذلك
يجهلون اسمه بتة ، فأقبلوا هم أيضاً يعظمونه ، وتناقلت ذريتهم

أمر هـذا النسب بينهم وبين ابنه اسماعيل ، الذي قالت لهم اليهود إنه جدهم ، حتى رسخت هذه القصة في أذهانهم بتمادي الزمان . فلما ظهر محمد رأى المصلحة في إقرارها فأقرها ، وقال للعرب إنه انما يدعوهم الى ملة جدهم هذا الذي يعظمونه من غير أن يعرفوه ، الا أن قدماء مؤرخيهم لم يتنبهوا لما تبطنه هـذه الدسيسة من الخداع اليهودي فصدقوها وأثبتوها في تواريخهم ، ثم تداولها الخلف عن السلف ، حتى صارت عندهم أخيراً من الحقائق التاريخية الراهنة التي لا يسع أحداً انكارها. وأنت قد رأيت مع ذلك أن للكلام في ردها مجالا متسعا لم يبق اليوم أحد من جهابذة العصر ومحققيه الا ويجزم بأنها خرافة ، وبأن التصديق بها حماقة ، فان أبى المسلمون بعدها الا أن يكون نبيهم وأمته منتمين الى ذلك المحتد الكريم فهم وما اختاروه لأنفسهم »

فيتابعه صاحب كتاب (في الشعر الجاهلي) ويقول في ص ٢٦

« والامر لا يقف عند هذا الحد ، فواضح جدا لكل من له إلمام بالبحث التاريخي ، وبدرس الاساطير والاقاصيص خاصة ، أن هذه النظرية متكلفة، مصطنعة في عصور متأخرة دعت اليها حاجة دينية، أو اقتصادية، أو سياسية.

للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي ، فضلا عن اثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة »

يقول صاحب الذيل « وحقيقة الامر في قصة اسماعيل أنها دسيسة لفقتها قدماء اليهود للعرب تزلفا اليهم »

فيأبى ذلك الحاكي المقلد الا أن يقول مثله ، فيقول في كتاب في الشعر الجاهلي « ونحن مضطرون الى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة

أخرى، وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون شمال البلاد العربية ، ويبنون فيه المستعمرات ، فنحن نعلم أن حروبا عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد، وانتهت الى شيء من الملاينة والمسالمة ، ونوع من المحالفة والمهادنة ، فليس يبعد أن يكون هذا الصلح الذي استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام »

ويقول صاحب الذيل « ولما ظهر محمد رأى المصلحة في اقرار القصة فأقرها ، وقال للعرب إنه إنما يدعوهم الى ملة جدهم هذا الذي يعظمونه من غير أن يعرفوه »

فيأبى ذلك الصدى الا أن يقول مثله أيضا فيقول في صحيفة ٢٧ « ولكن الشيء الذي لاشك فيه هو أن ظهور الاسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب قد اقتضى أن تثبت الصلة الوثيقة

المتينة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين ديانة النصارى
وديانة اليهود . ، فما الذي يمنع أن تستغل هذه القصة قصة
القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود »

لم يدع ذلك المقلد فكرة من أفكار صاحب الذيل في
هذه المسألة الا انتحلها حتى قوله (إن الوثنيين قبلوا هذه الفكرة
لانهم رأوا اليهود والنصارى متفقين على تعظيم هذا الاصل)

فيقول في كتاب الشعر الجاهلي (وقد كانت قريش
مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الاسطورة في القرن
السابع للمسيح) فمن المعقول جداً أن تبحث هذه المدنية
الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالاصول التاريخية
الماجدة التي تتحدث عنها الاساطير ، ثم قال في ص٢٩ من الشعر
الجاهلي « أمر هذه القصة اذن واضح فهي حديثة العهد
ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب ديني ، وقبلتها
مكة لسبب ديني وسياسي أيضا ، واذن فيستطيع التاريخ الادبي

واللغوي الا يحفل بها عند مايريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى »

لقد بان الآن أن الدكتور سرق بحثه هذا من صاحب ذيل مقالة في الاسلام ، وانما حكمنا بهذا لان كتاب ذيل مقالة في الاسلام أقدم من كتاب في الشعر الجاهلي فانه طبع للمرة السادسة في سنة ١٩٢٥ (*

وليته حين سرق ، فهم مايسرق وأداه على وجهه ، ولو فعل لكان محتاطا لنفسه كصاحب الاصل من الغلط الفاحش والنقض البين ، يجعل صاحب الذيل التوراة هي الاصل ويعرض عليها القرآن ، فان خالفها طعن فيه ، أما الدكتور فيكذب بالتوراة والقرآن جميعا ، فلا يكون بيديه شبه دليل إلا قوله - كل من له علم بالاقاصيص يعلم - ونستطيع أن نقول وهذه دعاوى مجردة

ويؤمن صاحب الذيل بوجود ابراهيم واسماعيل ،

---

*) واقدم طبعة رايناها له سنة ١٨٩١

ويكذب أبوة اسماعيل للعرب، فيأتي المقلد فلا يفهم عنه هذا، فيكذب بوجود ابراهيم واسماعيل فضلا عن أبوتهما للعرب، ويرى أن تلك حيلة اخترعها اليهود

كان صاحب الذيل فطنا محترسا ، وكان حاكيه قليل الفطنة، وقليل الاحتراس، فاصطدم بالنقض الآتي :

ان التوراة قد انتشرت في البلاد قبل نزوح اليهود الى يثرب وما حولها،في جزيرة العرب،وكان فيها ذكر ابراهيم واسماعيل،فلم يكن ذلك من صنع اليهود الذين كانوا بين ظهراني العرب حيلة منهم للتقرب اليهم

ولنتنازل عن ذلك، ونسلم جدلا أنها نشأت بعد نزوح اليهود الى يثرب وما حولها، فيبقى أنه لو كان يهود يثرب هم الذين اخترعوها حيلة فما هو السر في أن كان ذكر ابراهيم واسماعيل في جميع نسخ التوراة التي فى البلدان المختلفه ؟ أكان يهود يثرب هم كل يهود العالم؟أم كان يهود يثرب لهم السلطة على جميع يهود العالم ؟ فأي زيادة زيدونها في التوراة عندما حكموا

على جميع اليهود أن يزيدوها في نسخهم ؟ انه ليس هذا ولا ذاك وما أتي ذلك كله إلا من هذه الدعوى .

أما صاحب ذيل مقالة في الاسلام صاحب الفكرة الاصلية فقد كان مع سخفه أفطن لهذه الاعتراضات التى ذكرناها من حاكيه المقلد فصدق بوجود ابراهيم واسماعيل وكذب بأبوتهما للعرب فقط، وزعم أنها حيلة اخترعها اليهود، وهو حين يذهب الى هذا يكون أفطن من حاكيه ، ولا يرد عليه ما يرد على الدكتور

فقد بان من هذا أن الدكتور قد سرق بحثه من كتاب سخيف، ولم يفهمه على وجهه ، فوقع في التناقض الذي فطن له الاصل، فاحترس من أن يقع فيه . ثم بعد هذا يقال (الدكتور يبث البحث الادبي ، ويعلم طرائقه)؟ إن الدكتور ليس كذلك إلا في بلد قليل الاطلاع، وفي بلد يعد الجهل فيه علما. وهذيان المريض بحثا، ومصادمة المنطق طرائق التفكير والبحث ؟؟؟

الدكتور لا يستطاع أن يعوض ؟ إن مما يخجلنا أمام

الاجيال المقبلة وأمام جاراتنا أن يكون هـذا المغتصب المتهافت، المجانب للمنطق، رائجا في مصر، لا تعلم الأمة زيفه ولا التواء تفكيره، ويقول رئيس جامعتها انه لا يعوض. اننا لم نشأ أن نلقي القول دون دليل وبرهان، بل سقنا الدليل عليه. وأثبتناه بالوقائع الملموسة، وبينا للناس أرقام الصفحات وأريناهم على ضوء البحث قيمة بحاثتهم، فعسى أن يكفوا عن ذكر البحث الادبي، وطرائق البحث وما الى ذلك، وان أبوا إلا أن ينعتوه بما ينعتونه به، فنحن نعلن الى الناس جميعا أننا لا نرى في هذا البحاثة إلا مغيراً، يسرق أكفان الموتى، المهلهلة، البالية، فيزيدها هلهلة وبلى، ويلبسها ويخرج بها على الناس، فأما الذين أوتوا العلم فيشمون منها أكفان الموتى، ويرون فيها صديدهم وتراب القبر، ويعلمون ما فيها من درن وبلى، وأما أنصار الدكتور فيحسبونها أثوابا جديدة من نسج يده، ويعدونه بعد ذلك صناع اليد، ماهرا في البحث والتنقيب.

السياسة الالحادية فى التعليم

يتنازع الناس في مصر سياستان في التعليم ، احداهما دينية ، والاخرى لادينية : أما الاولى فهادئة لينة تمشي على بطء وكسل ، وأما الثانية فرحة نشيطة جادة عاملة ، يخاف منها وتتقى ، لا تترك فرصة لهدم الدين إلا افترصتها ، ولا بابا للتشكيك فيه الا اقتحمته ، وهذه السياسة يمثلها الدكتور طه حسين ومن لف لفه ممن يؤيدون سياسته

واني أريد أن أناقش هذه السياسة الحساب ، وأفندها وأبين عواقبها الوخيمة ، وأضرارها السيئة على العباد والبلاد ، وقبل ذلك لابد من أن أبين ان للدكتور ومن يؤيده هذه السياسة الالحادية

نستطيع اذا صح استقراؤنا لاعمال طه واستنتاجنا منها ، أن نحكم على سياسته التعليمية بأنها كانت سياسة واسعة النطاق ، ذات عناصر كثيرة ، وأهم عناصرها أنها

كانت سياسة لا دينية . وليس هذا التعبير طبقاً للمعنى كما يجب ، إذ يحتمل ذلك أنها كانت سياسية لا تناصر الدين ولا تخذله ، ونحن نريد أنها سياسية كانت تعادي الدين وتحاربه ، وتسعى في إزالة سلطانه على القلوب ، فلنسمها إذن سياسة هدم العقائد الدينية ، ولكي ننصفه ونحمل القاريء على الاطمئنان إلى هذا الحكم ، نقدم للقارىء عناصر هذا الحكم ، فان اطمأن إليها فذاك ، وإلا فهو في حل من أن يرى رأيا غير هذا الرأي .

إنك حين تقرأ ما يكتبه الدكتور في الجرائد مما له مساس بالدين تحس من سطوره الالحاد والدعاية إليه ، فتجده مثلا قد كتب في السياسة الاسبوعية عدد ٩٩ « ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية ، وما وصل إليه العلم من النظريات والقوانين . فالدين حين يثبت وجود الله ، ونبوة الانبياء يثبت أمرين لم يعترف بهما العلم ، فالعالم الحقيقي

ينظر الآن الى الدين كما ينظر الى اللغة وكما ينظر الى الفقه وكما ينظر الى اللغات، من حيث إن هذه الاشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة .... وإذن نصل الى أن الدين في نظر العلم لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحي . وإنما خرج من الارض كما خرجت الجماعة نفسها » اه

وكتب مرة يقول : إن الذين يؤولون نصوص الكتب السماوية ليوفقوا بينها وبين العلم ينافقون الدين والعلم معاً، ويرى أنه يجب أن يؤمن بالعلم ويؤمن بالدين وإن تناقضا ، ويجمع بين النقيضين في الايمان

وهذا رأي أخطر شيء على الدين ، لان تأويل الدين ليتفق مع العلم هو مادة بقاء الاديان ، واذا نزع منها ذلك جمدت واستعصت على البقاء ، وما يدعو إليه من الايمان بالعلم والدين معا فيما يتناقضان فيه لا يخفى مافيه من الخداع ، لانه من المعلوم حتى للاطفال أنه لا يمكن التصديق بالنقيضين ،

فلا يمكن الايمان بان البحر الابيض ملح، وليس ملحاً من شخص واحد في وقت واحد، وقد عرف النقيضان بأنهما لا يمكن اجتماعهما في الصدق والكذب.

وما إن اقتعد الدكتور كرسي الجامعة المصرية حتى أخذ يهدم في الدين بكل وسيلة، ونحن نكتفي هنا بالآراء التي طبعها.

أخرج الدكتور كتابه (في الشعر الجاهلي) فكذب فيه القرآن، ورماه بأنه يستغل الاساطير لغرض ديني، فقد قال فيه في ص٢٦: للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لاثبات وجودهما التاريخي.

وذكر فيه أن قصة إبراهيم وإسماعيل أسطورة نشأت في عهد قريب من الاسلام، اخترعها اليهود لغرض سياسي، وقبلتها قريش، واستغلها الاسلام لغرض سياسي وديني معاً

وقد نقل ذلك عن ذيل مقالة في الاسلام لمبشر شديد التعصب كما بينا ذلك في بعض ما كتبناه .

والمقصود هنا أن نبين أن الدكتور في دروسه لتلامذته بالجامعة كان يبث فيها الالحاد ، ويكذب بأخبار القرآن ، ويصفه باستغلال الاساطير ، ويأخذ أقوال المبشرين التي ما كان يحلم أصحابها بأن تدخل أحط المكاتب ، فيزجها في الجامعة المصرية في ثوب النقد الادبي ، ويقوض تحت سلطان النقد أعز معتقدات الامة عليها

فان قيل قد زعم رئيس الجامعة (أحمد لطفي بك السيد) أن هذه المسألة لم يدرسها للتلاميذ ، فكيف تزعم انه كان يدرسها لهم ؟ ، قلنا : إن للطفى السيد أن يقول . ولنا رأينا فيما يقول . إن الدكتور قد ذكر في أول كتابه (في الشعر الجاهلي) أنه أذاعه على تلاميذه وليس سرا ما تحدث به الى مائتين من التلاميذ ، فلسنا نترك قول المؤلف نفسه في حالة ليس فيها

دواع إلى الكذب ، و نأخذ بقول لطفي السيد في حالة الدفاع عن صاحب الكتاب (١)

على أنه قد كتبه وأذاعه على الطلاب وعلى غير الطلاب ، وذلك أكثر ذيوعا له مما يتحدث به في حجرات الدروس ، وقد خطب الدكتور طه حسين فى حفلة أقامها طلبة كلية الآداب بتاريخ ٦ شهر ٤ سنة ١٩٣٢ خطبة نشرت في أهرام ٧ ابريل سنة ١٩٣٢ جاء فيها :

أرجو أن يكون بيننا عهد كما أرجو أن يبلغه الحاضرون إخوانهم الا نؤمن إلا بالعلم

إذن ، فالدكتور طه حسين ذو سياسة غرضها هدم العقائد الدينية .

أظن أن هذا يكفي لان يستنتج ماذهبت إليه من أن سياسة الدكتور وأشياعه التعليمية هدم الدين ، فلنضع هذه النتيجة ، ونناقشه ومن يذهب مذهبه في هذه السياسة. ليس

---

(١) أي وهو استاذه وقد لقبه بابنه البكر

يكفي أن نقول هذه سياسته ، بل لا بد من نقدها ومناقشتها،
ولسنا نناقشها من جهة أن الدين حق ، ومن الباطل إبطال
الحق ، لئلا ندخل في مجادلات دينية ليس هذا محلها ، وإنما
نناقشهم ونتحاكم معهم الى مصلحة المجموع وقواعد الاجتماع،
ونبين أي السياستين أدعى الى تقدم العمران ؟ وأيهما أدعى
الى تقويضه ؟ ونبين آراء الفلاسفة في هـذه المسألة من
مؤمنين وملحدين :

إذا نظرنا إلى الدين في مجتمعنا، وجدناه رابطة بين الأفراد
كرابطة اللحم والدم ، جمع بين الأمة ووحدها ، وجعلها كتلة
متماسكة تشعر بشعور واحد ، وتسعى لمصلحتها ، وتدفع عن
وجودها. وهو فوق ذلك أس الأخلاق عندها، كما هو أس
الأخلاق عند الأمم الأخرى ، بنيت أخلاقها ومدنيتها
وحضارتها عليـه ، فمن يسعى في هدم دينها فإنما يسعى في
تقويض أخلاقها ، وتفكيك عراها ، وحـل وحدتها ، وما
بقاء الأمم إلا بهذين

الدين في النفوس هو ذلك الضمير الحي الذي يبعث الشخص إلى أن يضحي بنفسه لمصالح المجتمع، هو ذلك الضمير الذي يحض على الفضائل الاخلاقية الاجتماعية، وينهي عن الرذائل التي تفسد المجتمع، وتهد من قوته

إن هؤلاء الذين ينشرون الالحاد في الامة قوم قد تعلموا تعلما ناقصا، فلا وقفوا مع العامة. ولا تغلغلوا في أعماق العلم حتى كانوا مع الخاصة، ولو فعلوا لعرفوا للدين قيمته الاجتماعية، وعلموا أنه ضروري للمجتمع، ولأيقنوا أن الخدمة التي يؤديها للأمم لا يغني غناءه فيها غيره، لا من جهة ما يعطيه من أسس للأخلاق، ولا من جهة ما يزرعه من المحبة والالفة والتراحم والاحسان بين المجتمع الواحد، ولا من جهة ما يشرب النفوس إياه من حب العدل، والعفة، والمثل الاعلى، ولا من جهة ما يغرسه من الامل الذي يجعل الحياة راضية سعيدة، ويعين على مصائبها وبلاياها وشرورها

إن أصحاب هذه السياسة لم ينظروا إلى المسألة بحذافيرها،

وإن كل الفلاسفة الذين هم جديرون بهذا الاسم يرون للدين

هذه المنزلة ، وسأنقل لك رأي الفيلسوف ابن رشد ملخص

كتب أرسطو ، وأعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ، وفيما أنقله ما

يعلمك موقف الفلاسفة المتقدمين من الدين

قال ابن رشد في ص ١٢٩ من كتابه (تهافت التهافت)

« أما ما نسبه أبو حامد [1] من الاعتراض على معجزة

إبراهيم عليه السلام فشيء لم تقله إلا الزنادقة من أهل الاسلام ،

فان الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل

في مبادىء الشرائع ، وفاعل ذلك عندهم محتاج الى الادب

الشديد ، ولذلك يجب على كل إنسان أن يسلم بمبادىء الشريعة

وأن يقلد فيه ، ولا بد من هذا الوضع لها ، فان جحدها

والمناظرة فيها مبطلان لوجود الانسان من حيث الفضيلة ،

ولذلك وجب قتل الزنادقة ، فالذي يجب أن يقال إن مبادئها

---

(١) أى نسبه إلى الفلاسفة

هي أمور إلهية تفوق العقول الانسانية فلا بد أن يعترف بها مع جهل أسبابها ، ولذلك لا تجد أحداً من القدماء تكلم في المعجزات مع انتشارها وظهورها في العالم ، لانها مبادىء تثبيت الشرائع ، والشرائع مبادىء الفضائل ، فان تمادى به الزمان والسعادة الى أن يكون من العلماء الراسخين في العلم فعرض له تأويل في مبدأ من مبادئها فيجب عليه ألا يصرح بذلك التأويل ، وأن يقول فيه كما قال تعالى (والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربنا) هذه حدود الشرائع وحدود العلماء » اه

أنظروا أيها الداعون إلى تقويض الدين إلى تلك الكلمة الذهبية (إن جحد مبادىء الشريعة والمناظرة فيها مبطلان لوجود الانسان من حيث الفضيلة) أنظروا إليه كيف يقول ان الحكماء من الفلاسفة لا يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادىء الشرائع .

وقال أرنست رينان فى كتابه تاريخ الاديان (من الممكن

أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه ، وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى، بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الانساني في المضايق الدنيئة للحياة الارضية اه

وليس احترام الدين مقصوراً على الفلاسفة المتدينين بل إن الفلاسفة الجاحدين الذين لا يدينون بدين يحترمون الدين، ويعرفون له فضله في إنهاض الامم، وتشييد الحضارات، هذا جوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي يقول في كتابه (سر تطور الامم)

« فان قيل إنها طيف لا حقيقة له ، قلنا طيف وجب احترامه. فبفضله عرف آباؤنا حلاوة الامل ، وانطلقوا وراء تلك الاوهام انطلاق الشجاع أصابته جنة. فانقذونا من الهمجية الاولى، وأوصلونا إلى ما نحن فيه الآن. كذلك كانت الاوهام أشد عوامل الحضارة تأثيرا »

ويقول في ذلك الكتاب أيضا «وعلى الفلاسفة الذين يقتلون الادهار في هدم ما بناه المؤمنون في يوم واحد أن يخروا لهم ساجدين، فانهم حلقة من سلسلة تلك القوى الخفية المهيمنة على الكائنات ولقد جاؤا باعظم الحوادث التي خلدت في بطون التاريخ»

هؤلاء هم العلماء الذين أدركوا حقائق الكون، و أصول الاجتماع، ووجهوا علمهم الى ما يفيد الانسانية، لا الى ما يفسدها، ويقوض أركانها

لقد ضعف الدين في نفوسنا معشر المصريين بسبب اهماله في مدارس الحكومة، وبما يوجه اليه من طعون في المجلات والصحف، فضعف فينا كل شيء، ضعفت عاطفة الاحسان فليس منا — الا قليلا — من يحسن الى البائسين، وينفس عن المكروبين، ويهب ماله للمصالح العامة

ضعف فينا سلطان العقل على النفس، وعلى الشهوات، فضاعت أموالنا في سبيل شهواتنا ولذائذنا، وأدّى ذلك الى فقرنا المدقع

ضعفت فينا ـ الا قليلا منا ـ حاسة الشعور بالواجب وطهارة الذمة والعفة عن أموال الآخرين

ضعفت فينا أخلاق الشمم والعزة والعدل، فماذا تريدون أيها الناصرون للسياسة اللادينية في المدارس بعد ذلك ؟

ان الامة قد أشفت ، ولم يبق منها الا الذّماء، فأشفقوا على البقية الباقية من أخلاقها

انها قد أصبحت لحما على وضم ، فأنهضوها من كبوتها، بدل أن تجهزوا عليها ، حنانيكم بعض الشر أهون من بعض

أعلم أنكم تقولون (حقائق العلم ، والنقد الادبي ، وما دام العلم يعارض الدين فنحن نضحي بالدين لاجل العلم) ولكنني أقول لكم : ان الدين لا يتعارض مع حقائق العلم العملية كحقائق الكهرباء والبخار ، فمهما استكشف العلماء من حقيقة تقرب المواصلات ، وتسهل المخاطبات ، وتخفف آلام الانسانية ، وتدني من سعادتها ، فان تخالف الدين،

انما يخالف الدين تلك الآراء التافهة الفجة التي تدعونها تاريخا أدبيا ، واصطلحتم خطأ على تسميتها علما

خذوا مثلا كتاب الشعر الجاهلي ووازنوا بين ما تكسبون وما تخسرون، إنكم تكسبون أن شيئا كثيرا مما نسميه شعرا جاهليا ليس شعرا جاهليا، وتخسرون ضياع الدين من نفوس الناشئة ، وانهيار الاخلاق بانهياره

هبوكم كسبتم أن الشعر الجاهلي لم يوجد ، وأن مجنون ليلى شخص خيالي اخترعه الرواة ، أ كنتم بذلك تسامون أمم أوربا في حقائق علوم الطبيعة والكيمياء ؟ أ كنتم بذلك أقدر على استنبات الارض ، واستغلال أسرار الكون ، ومعرفة طرق الاقتصاد ؟ أ كنتم بذلك مخففين ويلات الانسانية ، مستكشفين طرقا لنعمتها ورفاهيتها ؟

لتهنأ الانسانية منذ اليوم، فقد خفت ويلاتها وشرورها ، ويا أيها الركبان الغادون الرائحون في الآفاق، زفوا البشرى

الى كل من لقيتم من أبناء آدم وحواء ، ولم لا ؟ ألم يستكشف طه حسين أن الشعر الجاهلي لم يوجد منه الا القليل ؟ ألم تكن هذه الحقيقة خيرا مما استكشف علماء أوربا من حقائق البخار التى سيرت القاطرات في البر والبحر ، ومن حقائق الكهرباء التى أنارت الحالك من الدجنة ، ومن قوانين الصوت التى نقلت الاصوات من قارة الى قارة في الزمن اليسير ؟

صدقوني أنها حقيقة ثمينة ومفيدة جدا ، وقد ضحى المستكشف لها بالدين ، ألا ترون صاحبها فخورا بها ؟ يتحدى وزارة المعارف بها ويُدل عليها ، ويقول ان معدتها لا تهضمها ؟

لا تهزلوا يا قوم وجدوا لحظة من الزمان ، لا تسرفوا في الضحك على ذقون أُمتكم ولحاهم ، وتقولوا «العلم والبحث» وتغروها بذلك ، وتسرفوا في هذا الغرور وهذا الخداع .
(حمار جارنا قد مات ، وأتانه قد ولدت * مجنون ليلى لم يوجد والشعر الجاهلي الذي بأيدينا ليس كله شعرا جاهليا) كلاهما

علمه لا ينفع في الحياة ، وجهله لا يضر ، ولا يقدم الامة في حياتها الاقتصادية ولا في أخلاقها شيئا

ان سياسة هدم الدين التي سلكها بعض أساتذة الجامعة جعلت الحكومة المصرية متناقضة أو عابثة ، تبني بيد، وتهدم مابنته باليد الاخرى ، فبينما هي تعلي من شأن الدين، وتقوي فيه في المعاهد العلمية الدينية، وفي مدارسها الاولية، والابتدائية، وتنفق على ذلك النفقات الكثيرة ، اذا هي تنقض الدين من أساسه في الجامعة ، وتنفق على ذلك النفقات الكثيرة أيضا.

تبني وتهدم ماتبني ، وتنفق وتسخو في الانفاق على هذا البناء، وعلى هذا الهدم

فيكون مثلها كرجل يبني قصرا ويشيده، ويستأجر المهندسين والعمال على تشييده، ويستأجر الهدامين على هدم ما بنى الاولون ، ويبقى كذلك في بناء وهدم ،احدى اثنتين :

اما أن تؤمن الحكومة بصلاحية الدين وضرورته،

واما أن تؤمن بنقيض ذلك ، فان كانت الاولى فعليها أن تصونه من عبث العابثين ، وان كانت الثانية فعليها ألا تتعب نفسها في تشييده وتوثيق قواعده، ولذلك نطالب من الحكومة بالحاح أن تعلن الى الجامعة وغير الجامعة أن سياستها في التعليم ليست الحادية ، فلا تبيح الدعوة في المدارس الى نبذ الدين، ونرى لذلك أن تكون ذات اتصال وثيق بالجامعة في هذه النقطة، لئلا يقع مثل هذا التناقض، أو العبث الذي أشرنا اليه

ليست دولة من الدول تعلم الالحاد في مدارسها الا دولة السوفيت ، وهذه لا تزال تحت التجربة ، فهل نريد أن نحاكيها ؟ واذا كان لا بد من المحاكاة فثمت الدول العظمى ، كبريطانيا العظمى والولايات المتحدة فلنحاكها

لا تسر هذه الحركة الالحادية في الجامعة المصرية الا المبشرين، واني أرى أنه يجب على جماعات المبشرين والدول التي تساعدها لغاية كان لهم فيها في القديم بعض العذر أن

يغيروا سياستهم الآن ضد الدين — أرى ذلك وأدعو اليه لان الزمن قد تغير، ولم يبق النزاع بين مسيحية وإسلام فقط، بل دخل خصم ثالث، هو عدو للاديان جميعها وهو الالحاد فمن يخرج من الاسلام يتلقفه الالحاد، فليس من مصلحة الاختين الشقيقتين المسيحية والديانه الاسلامية أن تقفا متخاصمتين، فتضعف قواهما، ويستفيد من ذلك العدو الالد المشترك، الراصد بالباب، يستفيد من ضعفهما كلتيهما

بل من مصلحتهما أن تتركا النزاع مؤقتا، وتتعاقدا معا على دفع هـذا العدو المغير الذي يرى رجال التبشير فتكه الذريع بالدين والمتدينين

وأما أنه يجب على الدول ذلك، فلأن الدين حجاز بين المسلمين وبين البولشفية، فكلما ضعف الدين ضعف ذلك الحجاز بينهم وبين البولشفية الممقوتة التي هي عدو مشترك لكل الدول الآن

٩ — نقض مطاعن

لقد ناهضت أوربا الدين حقبة من الزمن لغاية سياسية وهي أنها أرادت أن تتخلص من سلطة رجال الدين الذين افتاتوا عليها ، ولكنها لما أدركت غرضها كفّتْ عن مناهضة الدين ، والآن لما رأت أن الاخلاق تتدهور ، والاباحة تتسلط على الجماهير ، وخافت سوء العاقبة ، عادت الى تقويته وهرع الناس الى ساحة الدين ، يلتمسون العون منه على النجاة من هذا التدهور والانحطاط

فهل آن لنا بعد هذا البيان أن نعلم أن مناهضة الدين خرق ، وأنه ضار بوحدتنا وبأخلاقنا أبلغ الضرر وأشده ؟

هل آن لنا أن نتعاهد على نصر الدين وتقويته في نفوس الامة، لنقوي وحدتنا، وأخلاقنا، وروح الخير فينا، وندرك من تقوية الدين ما أدركه آباؤنا الاولون ، ودول أوربة المستنيرة الآن ؟

إنه لا يزال عندي شيء من حسن الظن ولا تزال عندي بقية من أمل. وفق الله المسلمين إلى ما فيه خيرهم ونفعهم.

القرآن الكريم

(الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)

(الر * كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)

وقال رسول الله ﷺ « عليكم بكتاب الله فان فيه نبأ من قبلكم ، وخبر من بعدكم ، وحكم ما بينكم ، من يدعه من جبار قصمه الله ، ومن يبتغ الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وأمره الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لما سمعه الجن لم يتناءوا أن قالوا (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد) هو الذي لا تختلف به الالسنة ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه »

وبعد . فلست أثني على القرآن الكريم إلا بما يشهد به التاريخ ، وتثني به عليه الاجيال ، ولست أنحله من الفضائل إلا ما يقوم الدليل عليه .

إن هـذا الـكتاب الكريم قبس من نور الله ، ونفحة من نفحاته ، وسر من أسراره لم تظفر بمثله أمة من الامم إلا الامة الاسلامية ، ولم تأت به نحـلة من النحل إلا الديانة المحمدية — هذا الكتاب ليس مثله كتب الاخلاق التي وضعها الفلاسفة المتقدمون ، كجمهورية أفلاطون ، وأخـلاق أرسطوطاليس ، وكتاب السياسة له ، ولا كتب الاخلاق التي وضعها فلاسفة الغرب ، وليس مثله أيضا كتب الديانات السالفة ، كالانجيل والتوراة والزبور .

لان كل أولئك لم تؤثر في أممها أثره في أمته ، ولم تفعل في شعوبها فعله في شعبه وفي سائر الشعوب التي دانت له — لعمري أين منه الاكسير الذي يبحث عنه الفلاسفة وعلماء الكيمياء . إن قصارى هذا الاكسير أن يحيل النحاس ذهبا ، أما القرآن فهو يحيل النفس الانسانيـة الخبيثة الى نفس طاهرة علوية ، وليس يفعل ذلك في فرد بل في شعوب وأمم ، ويبدل من الجهل علما ، ومن الرذيلة فضيلة ، ويجعل الشعب الذي

لا يصلح للاجتماع ، ولا لأن يعيش أفراده بعضهم مع بعض شعبا اجتماعيا ، من خير الشعوب الاجتماعية ، وينصبهم على الدنيا سادة ، ومعلمين ، ومهذبين ، وساسة عادلين ، وليس يفعل ذلك في الزمن الطويل ، وعلى الطريق المعروف الطبيعي بل هو يفعله في الزمن القصير المدى ، الذي لا يكفي لتهذيب فرد ، بله أمة بأسرها ، فمثله في ذلك مثل ما يتخيله علماء الكيمياء من فعل أكسير الذهب الذي يحيل النحاس الى ذهب وشيكا سريعا وهو لا يستحيل الى ذهب بفعل الطبيعة الا في آلاف السنين وهو مدفون تحت الارض تصهره حرارة قوية في باطنها .

وآية ذلك أن العرب كانوا قوما متوحشين في جزيرتهم ، يأكل بعضهم بعضا كالوحوش الكاسرة ، والذئاب الجائعة ، كانت الحرب تقوم بين القبيلة والقبيلة فتمكث عشرات السنين حتى تبيد القبيلتين ، وكان لا يأمن الرجل أن يسير في طرق الجزيرة إلا بحلف ، أو جوار ، أو في شهر حرام ، حتى كأن

الجزيرة أتون من نار يأكل من فيه ، ولا يصلح للقرار عليه ،
وكان العرب مع ذلك على أخلاق فظة ، وعادات قبيحة ،
فكانوا يئدون البنات ، ويهتكون الحرمات ، ويعبدون
الاصنام ، وتستعبدهم الاوهام ، وتملكهم الخرافات .

فأرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بذلك الكتاب الكريم (مثاني تقشعر
منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى
ذكر الله) فنقض طباعهم الوثيقة ، وأبطل عاداتهم المحكمة ،
وصهر نفوسهم فأزال خبثها ورذائلها ، وعادت نفوسا كريمة ،
لا تعلق بها رذيلة ، ولا تشوبها فاحشة ، وأرسل هؤلاء البدو
الجفاة على العالم القديم المتعفن البالى يعلمونه ويهذبونه ويثقفونه
ويحكمونه فيقيمون عدل الله في أرضه ، وقسطاسه في خلقه ،
هذه معجزة اجتماعية لم يشهد مثلها التاريخ .

إن المرء قد يعجزه أن يهذب ابنه وهو حريص على ذلك
مشتغل به ، مقصور عليه ، وربما أعجز بعض فلاسفة الاخلاق
والاجتماع أن يصلح أسرته ، وأن يسوس بيته فتنشز عليه زوجه ،

ويشذ عنه ولده ، وتأبى عليه أخلاق ورثوها أن تلين في يده، وعادات اكتسبوها أن تستحيل كما يريد

أما محمد بن عبد الله ﷺ فقد قام في الدنيا وحيداً فريداً ، الناس كلهم فريق وهو وحده فريق ، لا ناصر ينصره ، ولا ولي في الارض يؤيده ، وليس بيده من أسباب القوة والغلب والسيطرة والسلطان شيء ، ولم يكن بيده إلا آيات من ذلك الكتاب ، تنزل من السماء مفرقة ، ويرسلها الله منجمة

ماهذه الآيات ؟ ما هذه السور ؟ أي قوة تجثم وراءها وأي قدرة تستتر خلفها ؟ وأي سر من أسرار الكون تحمله في ضميرها ؟

انها تحمل أعظم قوة في الوجود حتى كأنها القدر، وتشتمل على سر خفي لا يعلم من أمره إلا أنه فوق القوى والقدر ، فما أرادت من الوجود شيئا الا كان كلمح البصر ، قالت للطباع الوحشية النافرة حولي فحالت ، وللقلوب المتحجرة ليني فلانت، وللرذائل النفسية زولى فزالت ، ولهذا المجتمع البدوي الذي كان شراً كله : كن خيراً كلك - فكان

كانوا قوما متعادين متباغضين فزالت العداوة والبغضاء وكانت قلوبهم مختلفة ، وأهواؤهم متنافرة ، فألف الله بين هذه القلوب ، وجمع هذه الاهواء (لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم : ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم)

كانوا قوما يعدو بعضهم على بعض فأصبحوا يدفعون العدوان عن العالم

وكانوا قوما من شذاذ الانسانية فأصبحوا قاعدة، وكان لا يستفيد منهم الوجود إلا شراً فأصبحوا أجدى الناس فائدة وكانوا أعداء لأنفسهم وللانسانيـة فأصبحوا أحب الناس للناس ، وأرأف الامم بالامم ، وأعدل الشعوب بين الشعوب، وكل ذلك في عمر قصير ، وزمن وجيز ، يقصر عن أن تراض فيه نفس واحدة .

كان « رستم » اذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول

أكل عمر كبدي ، يعلم الكلاب الآداب

ليأكل الغيظ كبدك ماشاء ، ولتمحقك الضغينة محقا فقد

قضى الله ولا راد لما قضى أن يتعلم هؤلاء الآداب والسياسة والاجتماع والفضائل والاخلاق والعلوم والفنون ، وأذن أن تقلب طباعهم ، وتحول أخلاقهم ، ويكونوا سادة الدنيا ، وزينة الارض ، وجمال العالم ، بما أحكم لهم من أسباب ، وما أنزل اليهم من آيات الكتاب .

هكذا فعل القرآن في القديم ، وهكذا يفعل في الحديث لو عني الناس به اليوم كما عني به أسلافهم بالامس ، ولو عكفوا على درسه والبحث فيه ، واستخراج العبر منه ، ولو تخلقوا بأخلاقه ، وتربوا على آدابه ، واستيقنوا بيقينه ، ومكنوا لأيمانه حتى يستولى على نفوسهم فلا تنبعث الجوارح إلا على مقتضى هذا الايمان

لو كان هذا الكتاب عند أمة غيرنا لجعلوه ورد الناسك ولوحة المتعبد ، وكتاب المتشرع ، وصحيفة الاخلاقي ، وقانون الاجتماعي ، وآداب السياسي ، ونموذج البياني ، ولكان كل شيء عندهم فيستولون به على كل شيء .

ولكنه مني بنا فلم نعرف له قدره كما يجب ، ولم نحفل به كما ينبغي والشيء لا يعطيك خيره الا على قدر احتفالك به ، واجلالك إياه ، ومعرفتك بقدره ، واستبصارك بخيره

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

كان سلفنا الصالح يعلمون مافي القرآن من خير ، وكانوا يرونه هاديا مرشداً اذا توفروا عليه ولذلك كان هجيراهم القراءة فيه والتدبر لمعانيه ، وكانوا يكرهون أن يشغلهم عنه شاغل حتى حديث رسول الله ﷺ

أخرج الحافظ عن قرظة بن كعب قال : لما سيرنا عمر الى العراق مشي معنا عمر وقال : أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا انهم مكرمة لنا ، قال ومع ذلك فانكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل ، فلا تصدوهم بالاحاديث فتشغلوهم ، جردوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله وأنا شريككم فلما قدم قرظة قالوا حدثنا فقال نهانا عمر

قرأت الامم الاخرى تاريخ القرآن ومبدأ الاسلام ،

وعرفت للقرآن فضله في انهاض المسلمين، وعلم علماء الاجتماع منهم ورجال السياسة ورجال التبشير ان المسلمين لو عادوا الى الاستيقان به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه وتحليل حلاله وتحريم حرامه لعاد اليهم مجدهم الاول، فسلطوا عليه المبشرين وصنائع المبشرين لينالوا منه ، وينفروا عنه ويرموه بكل كريهة ليبعد أبناء المسلمين عنه فيبعد عنهم الخير بقدر بعدهم عنه ـ هذا هو السر فيما تراه من حملات لا تني على القرآن الكريم .

ألا قد بلغت اللهم فاشهد ، ألا قد دللت المسلمين على الثغرة التي ينحدر منها اليهم أعداؤهم ليتقوها اللهم فاشهد ، ألا قد دللتهم على سر عظمتهم ، وسبب مجدهم ليسلكوا السبيل اليه ، اللهم فاشهد ، ألا قد أزحت الستار عن أعدائهم فأريتهم إياهم وخناجرهم مغمدة في صدورهم ، وأيديهم ملوثة بدمائهم وأفواههم فاغرة اليهم ، وأضراسهم وأنيابهم تنهش في لحومهم وأكبادهم ، اللهم فاشهد ، ألا قد بلغت اللهم فاشهد

تذييل

هذه فصول كنا كتبناها ردا على الناقد ونشرت في الجرائد في حينها ونحن نثبتها هنا ليعلم الناس قيمة بحوث الناقد وما فيها من مجانبة لأساليب المنطق والتفكير

يطلع على الناس الدكتور طه حسين بين كل آونة وأخرى بطائفة من أفكاره فيرى الناس فيها خلاف ما يعرفونه ، وقد يرون فيها ما يخالف معتقداتهم ، ومصادمة وتكذيبا لما أتتهم به الكتب السماوية ، ولما كنا قد درسنا الدكتور طه فيما يعرض له من بحث ورأينا له طرائق في البحث وخلالا تجعل لنتائج أبحاثه قيما زهيدة أردنا أن ندل الناس على بعض هذه الخلال فيه ، ونستشهد لهم من أبحاثه بما يدل على ظهورها فيه ليقرأوا له كتبه ورسائله بتحفظ ويحلوها بحيث أنزلها الله .

للدكتور طه حسين فيما يعرض له من الابحاث خلة

الجرأة على الحق فهو يدفع في صدره للشبهة تعن له ، والخاطر يهجس بفكره ، ولا يكلف نفسه أناة المتثبت ، ولا تبصر المنصف ، ولا استقصاء العدل لعله أن يكون قد ند عنه مالو ظفر به لغير حكمه ، وخالف رأيه ، بل يطرح عن نفسه مؤونة الاستقصاء ، وكلفة البحث ، ويستوطيء مركب العجز (والعجز مركب وطيء) فيخرج بحثه نيئا لم تنضجه نار الروية ولا الاناة والتبصر

أحاول أن أعرض على الناس نموذجا من بحثه بارزة منه الجرأة على الحق والتهجم بدون علم ، فأضع أيديهم منه على ماذكرنا فيلمسوه بأيديهم منه ، وأريهم إياه فيبصروه بأعينهم ، أحاول ذلك في أبحاثه فأراه كثيرا لا يعوز الطالب ولا يعنت الباحث ، ولا يشق على من يريده ، ولكن أظهر أبحاثه في ذلك وأجلاها ما كتبه في جريدة السياسة بعدد ١٦ يناير سنة ١٩٢٥ تحت عنوان (شعراؤنا ومترجم ارسططاليس) فلنمثل به .

قال الدكتور في ذلك المقال « على أني أنتقل من هذا العيب الى عيب آخر يشبهه وقد اشترك فيه شوقي وحافظ ونسيم وغيرهم من الكتاب أيضا وهم أنهم لم يقرأوا كتاب الاخلاق ولم يقدروه قدره ، ولم يفطنوا للغرض من تأليفه وترجمته فهم قد فتنوا بلفظ الاخلاق ، وخيل اليهم أن أرستطاليس قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ألفه ، وأن لطفي قد قصد إلى إصلاح الاخلاق يوم ترجمه. ولعل الرجلين قد فكرا في شيء من هذا ، ولكني أستطيع أن أذكر للشعراء والكتاب أن الغرض الاول من تأليف الكتاب وترجمته علمي لا عملي ، وأن المؤلف والمترجم أرادا خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا في الوعظ والارشاد ، وما أظن أن كتاب ارستطاليس في الاخلاق يصلح مرجعا للوعاظ والمرشدين ، وإنما هو مرجع حسن لصديقنا الدكتور منصور فهمي حين يدرس علم الاخلاق لطلابه في الجامعة وفي مدرسة الحقوق »

وملخص ذلك أنه عاب الشعراء الثلاثة والكتاب معهم

بأنهم فتنهم لفظ الاخلاق ففهموا منه ان كتاب أرسطو في الاخلاق كتاب وضع لاصلاح الاخلاق وغرس الفضائل، وقلع الرذائل من نفوس البشر ولم يعلموا أن الكتاب علمي وضع لخدمة العلم والفلسفة لاعملي وضع لاصلاح الاخلاق وربما فكر الرجلان في شيء من ذلك، ولكنه يذكر أن الغرض من تأليفه وترجمته علمي لاعملي، ومن ذلك أخذ أن من عرضوا للكتاب بالتقريظ لم يقرأوا الكتاب، وقد ألح على ذلك المعنى فقال (كلا يا حافظ لم تقرأ الكتاب ولم تتجاوز مقدمة الاستاذ لطفي السيد، ولم تر المؤلف والمترجم ماثلين في إطار، وانما تخيلتهما كذلك وأنزل شعرك عليهما هذا النور الذي تذكره، وأنا زعيم بأنك لن تحاول ولن تماري فيما أقول، فلو أنك قرأت الكتاب حقا ورأيت الفيلسوفين في هذا الاطار يفيض عليهما هذا النور لقلت فيهما كلاما غير هذا، وهل تريد أن تقنعني بان شاعراً مثلك مجيداً غنيا خصب الخيال يستطيع أن يفهم كتابا ككتاب أرسطو ويتفهمه دون أن يوحي اليه الشعر

آية من آيات البيان في وصف هـذا العقل الذي لم تعرف الانسانية مثله بعد ، كلا أنت كشوقي لا تعرف ارستطاليس ولم تقرأ إلا ترجمة الاستاذ لطفي)

ونحن الآن نؤكد للدكتور طه أن الكتاب وضع لاصلاح الاخلاق وأن الغرض الاول منه عملي لا علمي، وننقل له من كتاب أرسطو نفسه ماهو نص في ذلك.

قال أرسطو في الباب الثاني من الكتاب الثاني من كتاب الاخلاق صفحة ٢٢٩

١ ــ شيء لا يغرب عن النظر وهو ان هـذا المؤلف الاخلاقي ليس نظريا محضا كما قد يكون الشأن في كثير سواه فليس لأجل العلم بما هي الفضيلة أن أوغلنا في هذه الابحاث بل من أجل أن نتعلم كيف نصير فضلاء وأخيارا لانه إن لم يكن كذلك صارت هذه الدراسة عديمة الفائدة أصلا ، فمن الضروري اذاً أن نعتبر كل ما يتعلق بالافعال لنتعلم اتيانها لانها

هي صاحبة السلطان في التصرف في خلقنا وفي اكتساب ملكاتنا كما قدمنا آنفا .

وقال في صفحة ٣٦٦ في الباب العاشر من الكتاب العاشر

١ ـ اذا كنا قد حددنا قدر الكفاية في هذه الرسوم والنظريات التي أتينا عليها ونظريات الفضيلة والصداقة واللذة فهل نظننا الآن قد أتممنا كل مشروعنا ام هل أولى بنا أن نظن كما قلته أكثر من مرة أن في الشئون العملية ليس الغرض الحقيقي هو التأمل والعلم نظريا بالقواعد علما تفصيليا ، بل هو تطبيقها

٢ ـ ففيما يتعلق بالفضيلة لا يكفى أن يعلم ماهي بل يلزم زيادة على ذلك رياضة النفس على حيازتها واستعمالها أو إيجاد وسيلة أخرى لتصيرنا فضلاء وأخيارا

٣ ـ لو كانت الخطب والكتب قادرة وحدها على أن تجعلنا أخيارا لاستحقت كما يقول (تيوغنيس) أن يطلبها كل

الناس وأن تشترى بأغلى الأثمان ، وما يكون على المرء إلا اقتناؤها ، ولكن لسوء الحظ كل ما تستطيع المبادىء في هذا الصدد هو أن تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات في الخير وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقا للفضيلة وفيا بعهدها اه

فأرسطوطاليس يعترف أن هذا المؤلف الاخلاقى ليس نظريا محضا ، وليس لأجل العلم بما هي الفضيلة أن أوغل في هذه المباحث ، بل لأجل أن يتعلم هو والناس كيف يصيرون فضلاء ، ولو لم يكن الشأن كذلك لصارت هـذه الدراسة عديمة الفائدة ، وجعل علم الاخلاق علما آليا عمليا ليس الغرض الحقيقى منه التأمل والعلم نظريا بالقواعد ، وانما هو تطبيقها فلا يكفي أن يعلم ماهي الفضيلة ، وانما يلزم رياضة النفس على حيازتها. فكيف تسنى للدكتور طه أن يصرخ في وجوه الناس قائلا : نحن نستطيع أن نؤكد للناس أن الغرض الاول من الكتاب علمي لا عملي ، وأن يخطيء الناس اذا لم يفهموا خطأه ؟

هانحن أولاء بهذا النقد قد وقفنا القراء على رجل يعرض

له الخاطر الخاطيء فيعتقده ولا يكلف نفسه مؤنة البحث ليعرف أحق هو أم باطل، ثم يرمي به في ظهور أهل الصواب ونحورهم مشنعا عليهم إذا فهموا خلاف ما فهم

وهذا النقد كما يرينا الدكتور طه على ما وصفناه ، يرينا رجلا يستطيل على الناس بما ليس فيه ويوهمهم أنه حال من الشيء وهو منه عاطل

ذلك أنه يؤخذ مما نقلناه عنه ومن قوله في تلك الكلمة نفسها (أريد أن أكون حرا، فأنا معتذر الى شعرائنا الثلاثة إذ لاحظت أنهم جميعا قد عرضوا الى ذكر ارسطاليس ومدحوه وهم يجهلونه ويجهلون آثاره وأرجو أن يصدقوني - وهم يصدقونني - اذا قلت انهم يجهلون حتى كتاب الاخلاق الذي أنشأوا لاجله هذه القصائد ، وما أظن أن علمهم بهذا الكتاب يتجاوز مقدمة الاستاذ لطفي السيد وما أحسب أنهم جميعا قرأوا هذه المقدمة وأحاطوا بما فيها)

يؤخذ من ذلك ايماء أنه حينما قرظ كتاب الاخلاق

لارسطو قبل ذلك عرض لارسطو وهو يعرفه ويعرف كتاب الاخلاق الذي من أجله عمل التقريظ ، وإلا كان واقعا في العيب الذي يعيب به الشعراء من تعرضهم لما لا يفهمون .

وأنا ازعم أنه عرض لارسطو ولكتاب الاخلاق وهو يجهل أرسطو من كل نواحيه، ولا أستثني من ذلك شيئا إلا ناحية هي أهون نواحي أرسطو وأسلسها، تلك هي الناحية التاريخية فأنا أقر له بأنه يعلمه من حيث هو مؤرخ للنظام السياسي عند الاثينيين وبذلك ترجم له نظام الاثينيين — أما ماعدا هذه الناحية الوطيئة الذلول من تلك النواحي الصعبة الجموح كعلمه من حيث هو منطقى يصف طرائق العقل البشري في التفكير، ومن حيث انه سياسى يعلم ما هي المباديء التي تقوي الممالك أو تضعفها ، وما هي الاسباب في أن بعض الممالك ذو حكومة صالحة ، والبعض الآخر ذو حكومة فاسدة ؟ وماهى الاشياء التي يجب أن تكون لكل نوع من أنواع الحكومات الخ؟ نقول أما تلك النواحى فلا يعرفها ولا يعرف أرسطو من جهتها

أما أنه يجهل كتاب الاخلاق الذي وضع التقريظ من أجله فدليله مابيناه من خطئه في فهمه أن أرسطو لم يعمل كتابه لاصلاح الاخلاق، وأن غرضه علمي لا عملي، مع أن نصوص أرسطو في نقيض ذلك مكررة في غير ماموضع من الكتاب، وانها ليست بالامر الذي يخفى على من قرأ الكتاب، فلو كان قد قرأه حقا ولو قراءة سطحية لما وقع في هذا الخطأ

وأما انه يجهل أرسطو من النواحي الاخرى فاني أسوق له دليلا كالذي ساقه لحافظ ابراهيم فأقول :

أتريدني يادكتور طه أن أفهم ان عالما مثلك باللغتين اليونانية والعربية يعلم كنوز اليونان ومنهم أرسطو ودفائنهم من سياسة وأخلاق ومنطق وعلم طبيعي والهي ؟ الخ ثم يعف عن تلك الكنوز فلا يحمل الى قومه منها جوهرة واحدة ، بل يترك ذلك كله ويأخذ خرزتين من خرزهم هما الشعر القصصي عند اليونان ونظام الأثينيين ، كلا لست أفهم ذلك، وانما أفهم أنك لم تعرف الجوهر فأهديت الخرز، وأعوزك اللؤلؤ، فعلقت

بالاصداف ، وقصر باعك عن الشيء الجليل فرضيت بالحقير

على ان الدكتور طه يكاد يعترف في بعض مقالاته بما قلنا، فقد ذكر في نقده للعقاد أنه كان من أثقل الدراسات عليه فلسفة (كانت) وأنها من ذلك النوع الذي لا يفهم

والحق أن فلسفة ارسطو وأمثاله تعجز عقلا مثل عقل الدكتور طه، فلذلك جاوزها الى ما يستطيع من ترجمة القصص وتلخيصها، وما إلى ذلك من ترجمة الشعراء، والقول في حياتهم ومماتهم ، وشعرهم وغزلهم الخ

فاذا كان الدكتور يرمي الناس بدائه وينسلّ ، فيصم الناس بانهم يعرضون للشيء وهم لا يعلمونه ، وهو الذي يفعل ذلك ويزهى على الناس بما ليس فيه ، فأي رجل يكون ؟؟؟

بهذه الجرأة على الحق، وذلك التهجم على الناس، وتلك الاستطالة عليهم بما لا يعلم، وذلك الايهام بانه قتل الشيء علما، وهو لم يتذوق طعمه بطرف لسانه، ولم يشم رائحته بأنفه، وبذلك البحث السطحي وبذلك النظر الاهوج، والرأي الاحمق، يعالج الدكتور

ما يعالجه من بحوث ، ليسفه الناس في آرائهم تارة ، ويكذب الأديان فيما جاءت به تارة ، ويوسع الاوائل تكذيبا وتفنيداً تارة ثالثة .

هاءنذا قدقررت ان الدكتور أخطأ في فهمه ان كتاب الاخلاق ليس الغرض منه اصلاح الاخلاق، وأخطأ إذ لم يقرأ الكتاب ليحق هذا الفهم، وأخطا إذ رمى غيره بالخطإ، وأخطأ لانه رمي غيره بانهم لم يقرأوا الكتاب

وأقرر أنه هو الذي لم يقرأ الكتاب ، وأتحداه أن يتفصّى عما رميته به ، وأتحدى معه تلاميذه ومن على شاكلته في الجامعة ، وقد صخختته في غير لين ولا هوادة لأستثير حميته للدفاع عن نفسه ، وأستفزه للذود عن حياضه ، فان لم يدفع عن نفسه بعد ذلك كله علمت أن العجز قد أخذ بمخنقه(١) وتمثلت بقول الشاعر :

فما بُقيا عليّ تركتماني ولكن خفتما صرد النبال

(١) من دهائه انه لا يرد علي منتقديه حتى لا يشتهر ردهم الفاضح له

القرن الثاني

ليس عصر شك واستهتار

(إلى الدكتور طه حسين)

السلام عليكم ورحمة الله : وبعد فاني أخالفك في ذلك الحكم الذي حكمت به على العصر الثاني من انه عصر شك واستهتار ، أخالفك في الحكم وفي طريقة استنتاجه جميعاً فهل لك أن تنصت إليّ قليلا فان رأيت الحق فيما أقول رجعت اليه ، وإلا نبهتني على مافيه من خطأ فارجع إليك ، فان طلبتي وطلبتك الصواب ، والحق نريد .

ليس معنى الحكم على عصر بانه عصر شك واستهتار انه قد وجد فيه الشك والاستهتار ، إذ لا يخلو من ذلك عصر من العصور ، وانما المعنى أن الروح العامة فيه الشك والاستهتار وان غالب أفراده الشاكون والمستهترون ، ولا يقدح في ذلك

أن يوجد الموقنون والمحتشمون على سبيل القلة والندرة ،
وكذلك الحكم على عصر بانه عصر يقين واحتشام . ولقد
توصلت الى حكمك العام على العصر الثاني باستقراء حال طائفة
من الادباء والشعراء والمترفين ، فرأيت فيهم الشاك والماجن
فأخذت العصر بجريرة هؤلاء ، وحكمت بان العصر عصر
شك ومجون

وإن تصفح طائفة ووجدانها على صفة لا يعطي منطقيا
الحكم على عصرهم جميعا بان فيه هذه الصفة ، ولو كان ذلك
الاستقراء القليل منتجا لذلك الحكم العام لخرجنا بحكمين
متناقضين على ذلك العصر وعلى غيره من العصور

فاننا إذا تتبعنا سيرة الفقهاء والمحدثين والزهاد في ذلك
العصر ، وجدناهم على مرتبة عظيمة من اليقين والورع والزهد
والاحتشام . ففيهم الحسن البصري المتوفي سنة ١١٠ وقد كان
أفضل أهل زمانه علما وزهدا وتقوى

لما ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق ، وأضيفت اليه

خراسان وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك استدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين والشعبي وذلك في سنة ١٠٣ فقال لهم إن يزيد خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولاني ما ترون فيكتب إليّ بالامر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الامر فما ترون ؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولا فيه تقية ، فقال ابن هبيرة ماتقول ياحسن ؟ فقال ياابن هبيرة خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله ، إن الله يمنعك من يزيد وان يزيد لايمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث اليك ملكا فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة الدهر ، الى ضيق القبر ، ثم لاينجيك الا عملك . ياابن هبيرة : إن تعص الله فانما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله ، فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

ومنهم عمرو بن عبيد المتوفي سنة ١٤٤ سئل الحسن عنه فقال للسائل : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن

الانبياء ربته ، إن قام بامر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه ، قال له المنصور يوما هل من حاجة؟ قال لا تبعث إلي حتى آتيك. قال إذن لا تلقاني : قال هي حاجتي ، ومضى ، فأتبعه المنصور طرفه وقال : كلكم يمشي رويد ، كلكم يطلب صيد ، غير عمرو بن عبيد. ورثاه المنصور بقوله :

صلى الاله عليك من متوسد	قبراً مررت به على مروان
قبرا تضمن مؤمنا متحنفا	صدق الالهَ ودان بالعرفان
لو أن هذا الدهر أبقى صالحا	أبقى لنا عمرا أبا عثمان

ولم يسمع بخليفة يرثي من دونه سواه

ومنهم مالك بن أنس المتوفي سنة ١٧٩ وسيرته في العلم والتقوى معروفة ، لدغته عقرب وهو يقرأ الحديث فاربدّ وجهه ، وتغير لونه ، واستمسك مخافة أن يقطع حديث رسول الله ﷺ قال الشاعر فيه :

يذر الجواب فما يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الاذقان

عز التقى وفضل سلطان النهى ... فهو المهيب وليس ذا سلطان

ومنهم محمد بن إدريس الشافعي المتوفي سنة ٢٠٤ وأبو حنيفة النعمان ، وأحمد بن حنبل ، ومالك بن دينار المتوفي سنة ١٣١ ، وعبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١ ، وربيعة الرأي المتوفى سنة ١٣٦ ، ورابعة العدوية المتوفاة سنة ١٨٥ ، وابن سيرين والشعبي وكثير غيرهم ، وإنما سبيلنا أن نمثل ولا نستقصي ، وما منهم إلا من ملك نفسه ، وكان أنفع الناس للناس ، وسيرتهم في العلم والزهد والتقوى يعرفها من عني بدرس حياتهم

جمال ذي الارض كانوا في الحياة وهم ... بعد الممات جمال الكتب والسير

فها نحن أولاء قد وجدنا طائفة عظيمة موقنين محتشمين والدليل الذي نتبعه أن الحكم على عصر يتبع الحكم على طائفة فيه ، فهو عصر يقين واحتشام ، وقد كان عصر شك واستهتار

فقد خرجنا بحكمين متناقضين والتناقض باطل فما أدى اليه فهو باطل ، وهو الدليل

والحق أن تتبع سيرة طائفة يعطي الحكم عليها فقط ، أما أنه ينقل الحكم الى بقية الطوائف فلا . فطائفة العلماء والفقهاء والمحدثين والزهاد موقنون محتشمون ، وطائفة الشعراء والادباء فيهم شك واستهتار ، فاذا أردنا أن نحكم على العصر فسبيلنا أن نتعرف أطائفة الفقهاء والزهاد والمحدثين هم الذين كانوا يمثلون عصرهم ويعطون صورة صحيحة عنه ؟ أم طائفة الشعراء والمغنين ؟ نبحث فنجد أموراً ظاهرة في ذلك العصر تخول لنا الحكم عليه :

أولا ـ أن الناس في ذلك العصر كانوا يبجلون أصحاب الفقه والحديث ويعظمونهم ولم يكن بين الرجل وبين الجاه والشرف إلا أن يكون من أصحاب الفقه أو الحديث . عن أشعث بن شعبة قال : قدم هارون الرشيد الرقة فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة

فأشرفت أم ولد لامير المؤمنين من برج الخشب ، فلما رأت الناس قالت ماهذا ؟ قالوا عالم أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله بن المبارك ، فقالت هذا والله الملك ، لا مُلك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان

ولو لم يكن للدين في نفوسهم المحل الارفع لما نزل أصحابه منهم هذا المحل

ثانيا ـ أن الدين كان شغل العلماء الشاغل في ذلك العصر فقد عكف قوم على تخريج أحكام الفروع ، ومعرفة الحلال والحرام ، واستنباط ذلك من الكتاب والسنة والقياس ، وهم الفقهاء ، وقوم على تعرف أصول الدين ، ومعرفة وجود الله وصفاته ، وإرسال الرسل ، وإمكان المعجزات ، وما الى ذلك وهم المتكلمون ، وقوم على مواعظ الدين وآدابه ، وحكمه : وما يحض عليه من مكارم الاخلاق وهم الزهاد والنساك .

وآخرون على الرحلة في طلب الحديث والتزيد منه وهم المحدثون . وغيرهم على فهم كتاب الله ومعرفة ناسخه ومنسوخه

وهم المفسرون . وما لقي الادب والشعر وعلوم العربية حظا إلا لانهم كانوا يرون أنها تعين على فهم كتاب الله وسنة نبيه، وبالجملة فلم تخدم علوم الدين في عصر من عصور الاسلام كما خدمت في ذلك العصر، ففيه وضعت أصول أغلب العلوم الاسلامية وأحكمت قواعدها، وفرعت فروعها، وهذا أثر من آثار اهتمام أهل العصر بالدين ويقينهم به لا من آثار الشك فيه .

ثالثا ـ أن الناس كانوا يطالبون حقوقهم باسم الدين، وكان الفلج لمن وجد في الدين مايدل له حتى الخلافة العظمى فقد كانت الدعوة للعباسيين باسم الدين، ولما استتب لهم الامر وأديل لهم من بني أمية كانوا يذودون أبناء (علي) بالدين، قال مروان بن أبي حفصة :

انى يكون؟ وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الاعمام

ويجيبه الداعي الى العلويين بقوله :

لم لا يكون؟ وان ذاك لكائن لبني البنات وراثة الاعمام

للبنت نصف كامل من ماله　　والعم متروك بغير سهام

ما للطليق وللسهام وانما　　صلى الطليق مخافة الصمصام

رابعا ـ ان المهدي نهى بشارا عن الغزل في النساء وذكر ذلك مرارا كالابيات الآتية :

بعثت إلي تسومني　　بُرد الشباب وقد طويته

بالله رب محمـد　　ما ان غدرت ولا نويته

ان الخليفة قـد أبى　　واذا أبى شيئا أبيتـه

ونهى الامين أبا نواس عن شرب الخمر وقد ذكر ذلك في أبيات كثيرة منها :

أيها الرائحان باللوم لوما　　لا أذوق المدام الا شميما

نالني بالمـلام فيهـا إمام　　لا أرى لي خلافه مستقيما

كبر حظي وما أؤمل منهـا　　أن أراها وأن أشم النسيما

فكأني بمـا أزين منهـا　　قَعَدي يزين التحكيما (١)

---

(١) قعدي بالتحريك نسبة الى القعدة وهم طائفة من الخوارج قعدوا عن نصرة علي كرم الله وجهه ، والتحكيم بينه و بين معاوية معروف

وهذا يدل على احتشام وحب لصيانة الآداب

خامسا ـ ان الناس كانوا يغارون على دينهم وكانوا ينقمون على من يظنون فيه مخالفة ولو كانت دون الكفر ، يدل لذلك قول الشاعر في ذلك العصر ولا يحضرني الآن اسمه ولا الشطر التالي من البيت الاول :

هاج الفؤاد بلابل الصدر . . . . .

ان بحتُ طُلَّ دمي وان كتمت وقدت على توقد الجمر

مما جناه على ابي حسن عمر وصاحبه أبو بكر

فهذا كان يخاف أن يطل دمه من إظهار عقيدته تلك وهي دون الكفر (١)

وما نقل عن أبي نواس وبشار من الزندقة والالحاد فلعله مما كان يتحدث به أحدهم لخاصته ، ورواه الرواة بعد لكلفهم بالرواية

سادسا ـ تقرأ فيما تقرأ ان هؤلاء الشعراء كانوا يرون

---

(١) ولكنها عقيدة السياسة والملك وهي ادعى الى استباحة الدم من الكفر

أنفسهم غرباء بخلقهم من ذلك العصر وأنهم شذاذ منه ،
وكانوا يسعون بما لديهم من قوة لمحو القالة عنهم . اتفق بشار
وحماد على الحج مع الحاج ليتحدث الناس بذلك فتنفى عنهم
قالة السوء ، فلما خرجا بعدت عليهما الشقة فمالا في الطريق
الى مكان فعاودا لهوهما، فلما قفل الحاج قفلا معا فهنأهما الناس
بذلك الحج ، فغضب حماد من بشار يوما فقال هذه الابيات :

ألم ترني وبشارا حججنا	وكان الحج من خير التجاره
خرجنا طالبيْ سفر بعيد	فمال بنا الطريق الى زراره
فآب الناس قد حجوا وبروا	وأبنا موقرَين من الخساره

كل ذلك يسوغ لنا الحكم بان العصر الثاني عصر يقين
واحتشام، لا عصر شك واستهتار، وأن السبب في الحكم بغير
هذا — على ما أظن — أن القاريء للاغاني يخيل اليه من
كثرة ما يذكر من مجون هؤلاء أنهم في جو يسيل فسقا
ومجونا وإلحادا ، ولكن لو تذكر أن صاحبه انما عني بتاريخ
طائفة فقط هم الشعراء والمغنون ، وليس ذلك تاريخا لسائر

العصر، لحمى نفسه من التورط في ذلك الحكم(١) وأن هناك عوامل خاصة جعلت كثيرا من الشعراء المستهترين ماجنين سنعرض لها في مقال آخر، وإن ذكرنا لها يفضي بنا الى مأخذ آخر على الاستاذ الدكتور طه حسين

---

(١) أي لان مقتضى قواعد النقد التحليلي لاهل عصر من العصور أن يبنى على خلاصات كلية عامة لامرائه وحكامه وعلمائه على اختلاف طبقاتهم من مفسرين ومحدثين وأصوليين وفقهاء ومتكلمين وعباده وصوفيته وأدبائه وفنانيه وشعرائه كما بينه الاستاذ الكاتب لهذا في أوائل هذا المقال، فخروج الدكتور طه عن هذه القاعدة التي يدعيها دليل على أنه قد كتب لافساد الاخلاق لاجل تحقيق التاريخ.

أرأيت لو كلف أن يكتب تاريخ فرنسة في هذا العصر الذي عرفها فيه بالاقامة في عاصمتها عدد سنين وكانت هي التي حببت اليه هذا الضرب من البحث التحليلي لحياة الفساق والمجان الذين يوجد منهم في تلك العاصمة ما لا يوجد مثله في سائر عواصم الشعوب في الكم ولا في الكيف — أرأيت لو اقتصر فيما يكتبه فيه على تهتك هذا الصنف وفجوره، أكان يكون مؤرخا صادقا، وناقدا مجددا ومعلما ناصحا للامة التي يكتب لها، أم يعده كل عارف بحال فرنسة وعاصمتها من كذبة المؤرخين، والكتاب المفسدين، وهو انما كتب ما خبره بنفسه، وعرفه بسمعه وحسه ولمسه، وأما ما كتبه عن القرن الثاني للهجرة فهو قليل من روايات خاصة تحتمل الصدق والكذب، وقد يكون جانب الكذب فيها أرجح، بخلاف روايات حفاظ الحديث، وكذا رواة اللغة فتدبر ؟ (انتهى الكتاب)

كلمة ختامية في هذا الكتاب وعلاوته وذيله

يقول محمد رشيد رضا صاحب دار المنار : جاءني صديقي الاستاذ العالم الاديب ، الكاتب الخطيب ، المؤلف بما كتبه في نقض مطاعن الدكتور طه حسين الاخيرة على القرآن العظيم ، ورغب الي في طبعه بمطبعة دار المنار والعناية بتصحيحه وكتابة مقدمة لتصديره ففعلت .

ولما تم طبعه ارتأى أن يضم اليه طبع ما كان قد كتبه ونشره في المنار من الرد على كتاب الدكتور (في الشعر الجاهلي) وهو يدخل في مسمى هذا الكتاب لانه نقض لطعنه في القرآن ، وقفى عليه بفصل عنوانه (السياسة الالحادية في التعليم) حمله عليه ما كان قد كتبه طه حسين وبعض انصاره من كون الجامعة المصرية قد انشئت لتعليم وثقافة تضادان تعليم جامعة الازهر الدينية وثقافتها ، وما ينتقد على جميع المدارس الدنيوية في هذا الباب . وختم ذلك كله بكلمة قيمة بليغة في بعض مزايا القرآن الكريم

ثم ارتأى أن يجعل له ذيلا في انتقادات سبقت له على بعض ما كتبه هذا الدكتور الجرىء بل المتهور في بعض المسائل الادبية والتاريخية غير الدينية ونشره في بعض الصحف ، وبذلك عرف كنه الدكتور طه في جميع معارفه ومقاصده

واما مقدمتي للكتاب فقد كتبتها قبل تمام طبع اصله فموضوعها خاص بطعنه على القرآن العظيم في جملته وأهم مسائله الكلية ، وفي طريقة الطاعن وامثاله في نقدهم ومطاعنهم ، وبطلان بعض قواعدهم فيه وأغلاطهم فيما يبنون عليها من فروع ، دون سياسة الالحاد في التعليم وما بعدها فلم أعرض لهما .

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب تنبيها المغرورين بأنفسهم ، وبصيرة للاغرار المقلدين لهم ، والسلام على من اتبع الهدى

فهرس كتاب نقض مطاعن

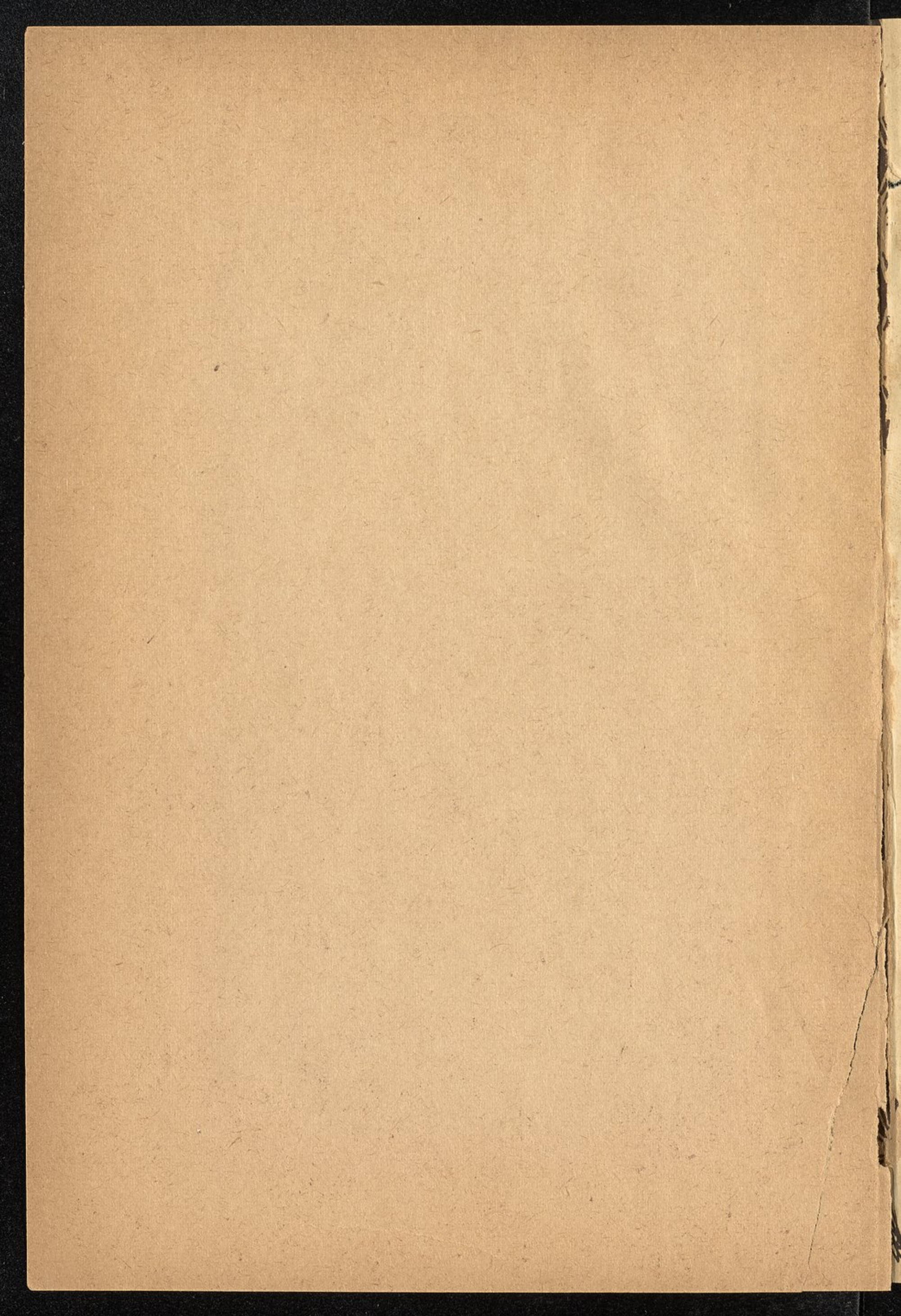
﴿ علاوة ﴾

﴿ تذييل ﴾

﴿ تصويب أهم ماوقع من التحريف في الكتاب ﴾

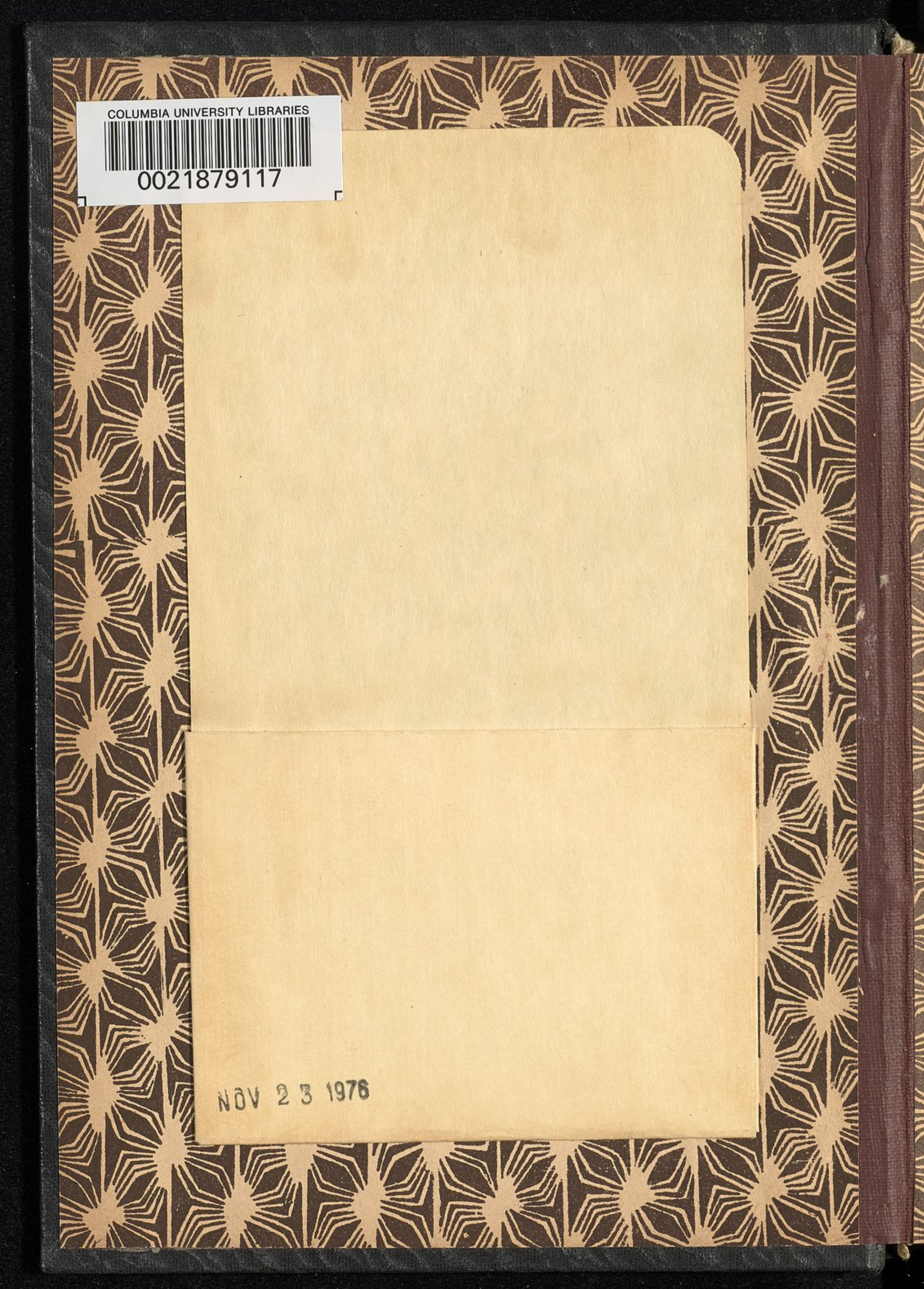
صواب السطر ٨ من صفحة ٤ من المقدمة هكذا :
عاد اليها فجعله وهو مديرها من أساتيذها ثم عميدا لكلية الآداب فيها الخ

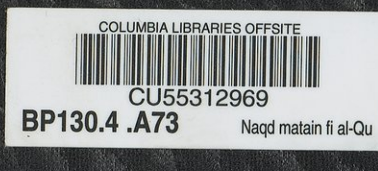
صفحة	سطر	الخطأ	صوابه
٣	٣ (مقدمة)	بينَ	بينِ
٩	٢ »	شراز	شرار
١١	٩ »	صدق	صورة
٥٣	١١	لا تُدنّ	لا تَمُدَّنّ
٥٥	٤	وفودها	وَقُودُها
٦١	١٤	ينحمكم	ينجيكم
٦٢	١	يدعوته	يدعونه
٦٣	٩	وخرقوله	وخرقوا له
٦٦	٦	وازر	وازرة
٦٨	٤	ولم تخل	ولم يخل
٧٣	١٢	عتلوه	عقلوه
٧٤	٦	لن يضروك	فلن يضروك
٨٥	٢	ضراوة النافد	ضراوة الناقد
١١٥	١٤	لعرض	لغرض
١١٩	٦	تعليما	تعلما
»	١٠	ما بعطيه	ما يعطيه
١٣١	١٣	وثنى	وتنى
١٤١	١٢	الباحت	الباحث
١٤٢	٣	وهم أنهم	وهو أنهم





DUE DATE
MAY 3 1 1989
FEB 1 6 REC'D
201-6503
Printed in USA


COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0021879117
NOV 23 1976


COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU55312969
BP130.4 .A73
Naqd matain fi al-Qu